حياتي في القوقعة

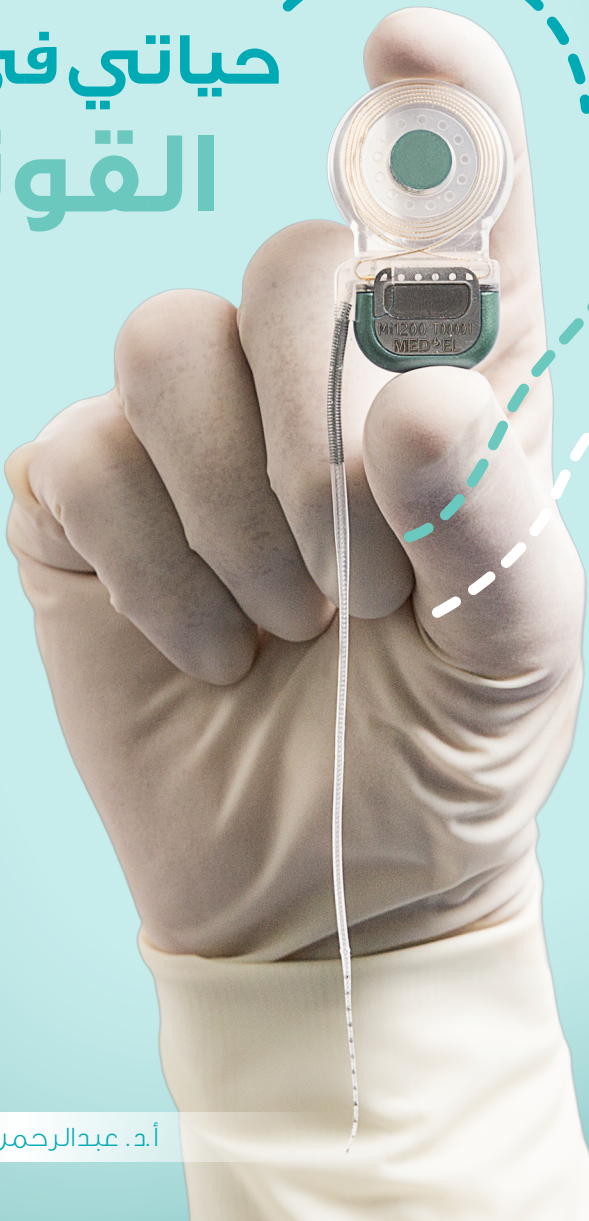

أ.د. عبدالرحمن بن عبدالله حجر

عبدالرحمن عبدالله محمد حجر، ١٤٣٦هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

حجر، عبدالرحمن عبدالله
حياتي في القوقعة / عبد الرحمن عبدالله حجر
الرياض، ١٤٣٦هـ
٦٧ص، ..سم
ردمك: ٩-٦٠٣-٠١-٩٣٧٦-٩٧٨

١- الأطباء العرب أ. العنوان
ديوي ٩٢٦،١ ١٤٣٦/٩٠٩١

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٩٠٩١
ردمك: ٩-٦٠٣-٠١-٩٣٧٦-٩٧٨

إهداء

أُقَدِّمُ هذا الكتابَ لابنتي الغالية روى؛ فهي رُؤَى أحلامٍ سعيدةٍ تحققتْ، وأذن خير سامعة مطيعة...

كما أهدي هذا الكتاب لكلِ أبنائي وبناتي الذين زرعتُ لهم قوقعةً، وتمكّنوا من السماع بفضل اللّٰه أولاً وأخيراً، وتحققت رؤى والديهم وهم يسمعونهم يُرَدِّدون بابا وماما...

المحتوى

مقدمة ٨

الفصل الأول – الأذن

الأذن وما أدراك ما الأذن؟ ١٢

السمع أم البصر ١٦

الفصل الثاني – قِصصي مع القَوْقَعَة

عشرة يا دكتور ٢٦

قوقعة تفجر كنيسة ٢٨

القواقع الكوبية ٣٠

القوقعة أو أمي وأبي ٣٣

الاطمئنان من الآذان ٣٥

كرسي ثم مركز ٣٩

القوقعة والحلاق ٤٢

الأولاد فقعوا رأسي ٤٥

(دعوة لك يا سلطان) حلمٌ آخرُ يَتَحَقَّق! ٤٩

غنت جروحي ٥١

قراءة الشفاه نعمة أم نقمة؟!! ٥٤

القوقعة القاتلة ٥٩

الأحوال والجوال ٦١

الهدية لا!	٦٣
العلاج في الهند	٦٥
في ألمانيا	٦٧
أنبوب في أمريكا	٦٩
دُموع الفرح	٧١
ما عندنا قواقع	٧٣
شكوى في الأمارة	٧٦
تهديد ووعيد	٧٩
لا لزراعة القوقعة	٨١
مسح السمع	٨٣
لقاء الملك	٨٥
جذع الدماغ	٨٧
حجر القوقعة	٩٠
حجر السفير	٩٢
القوقعة المكسورة	٩٤
ملَكة اللمس	٩٦
المعارضة المؤيدة بصمت	١٠١
جاهل متجاهل	١٠٢

كندا تتعلَّم من السعودية! ١٠٤

الفصل الثالث – زمالة وزملاء

زمالة التحديات ١٠٧
أول الأوائل ١١٠
الدفعة الثانية ١١٣
ليس بكامل ١١٥
الربيع الطلق ١١٧
الرجل المبارك ١١٨
المبتكر الصالح ١٢٠
الطبيبة السعودية ١٢٢
ابن الصحابة ١٢٤

الفصل الرابع – حكم قوقعية

الأقارب عقارب ١٢٦
لا توائم في عين الأم ١٢٨
حشو كراعي ١٣٠
أزهد الناس في الشيء أقربهم إليه ١٣١
يداك تلف بحديد ١٣٢
يَضَع سره في أصغر قوقعته! ١٣٤
صَفّر بالقوقعة الخضراء ١٣٦
زواج القوقعة كاثوليكي ١٣٧
الأصم عدو القوقعة ١٤٠

لا تؤجل عمل الغد إلى اليوم ١٤١
الاختلاف الشفاف ١٤٣
يستفيد الذكي من أعدائه ١٤٦
الصديق الشقيق ١٤٧
عرض بنتي للخِطبة ١٤٩
الإعلام والملام ١٥١
تنفس بالتنافس ١٥٦
الأصم مُحِقٌّ ١٥٨
مرق القوقعة ١٥٩
العلم بالتعليم ١٦١
الفصل الخامس – الزراعات والمصنعين
صناعة الزراعة ١٦٣
السماعة الاهتزازية ١٦٤
السَّمَّاعة العظمية ١٦٦
القوقعة الإلكترونية ١٦٩
الجراحة ١٧٢
سماعة الهجين ١٨٢
الشركات ١٨٣

مقدمة

تُعَدُّ الإعاقةُ السمعيةُ أكثر الإعاقات البشرية انتشاراً في جميع أنحاء العالَم، بينما تُعَدُّ أقلَّها اهتماماً مِنْ قِبَل المسؤولين وصُنَّاع القرار! والسببُ الرئيسُ يعود بِرُمَّتِه إلى أطباء الأنف والأذن والحنجرة مثلي وأمثالي المتقاعسين عن إبراز هذا الموضوع، ناهيكم عن توفُّر العديد من طرُق الكَشْف المبكِّر والتدخُّل السريع والعلاجات الكثيرة، بل وحتى الوقاية من هذه الإعاقة!

فهل عرَفْتُم الآن مدى التقصير في تأدية الأمانة من قِبل المختصين؟! لهذا كلي أمل أن يكونَ هذا الكتابُ توبتةً وتكفيراً واعترافاً بهذا التقصير.

وقد حرَصْتُ في هذا الكتاب على أن أقدِّم للقارئ حصاد عشر سنوات من التجارب المريرة والتحدِّيات الجسيمة التي واجهتْني في حياتي، حتى تمكَّنتُ مِن إرضاء شيءٍ مِن شغفي في خدمة وطني وأهلي في كل قرية من بلدي، راجياً رضاء ربي.

هذا الكتابُ يُلَخِّص أيضاً قصة نجاح أكبر مركز زراعة قوقعة في العالم (٦٠٠ زراعة سنويًا)، بعد أن كان أصغر برنامج في السعودية (٤ زرعات سنويًا)، وخلال أقل من عشر سنوات وبنفس الإمكانات والمكان والمتخصصين!

هذه قصةٌ حقيقيَّةٌ لا تخطر في الأحلام ولا الرؤى، مهما كان صاحبها متفائلاً!

في هذه الأوقات أحْسَسْتُ بأنني قد قمتُ بالأمانة وكُلِّي أملٌ أن يكون هذا الكتاب هو خاتمة ما سوف أُقَدِّم في زراعة القوقعة، ليس تقاعساً مني، بل لِوُجود مَن هو أفضل منّي في حمل الأمانة، وقد يكون بقائي حاملاً لها تقزيماً للدور الكبير المنوط بمَنْ سوف يكمل المشوار.

قرأتُ كتاب الدكتور غازي القصيبي: «حياتي في الإدارة»، عدة مرات، وجعلْتُه مثَلي الأعلى في تقبل الصدمات والتحديات، بل واستثمارها فيما يخدُم الهدف النبيلَ في آخر المطاف. نعم كانتْ هذه الصِّعابُ سماداً لشجرة مِعطاء، إنْ لم تَجْنِ ثمارَها لك أن تحذو عبقها، أو تكتحل بجمالها، أو تستظل بأغصانها.

أصبحتْ حياتي كلها قوقعةً، أصبحتْ مثالاً جَليّاً للتقوقُع، فلمْ يَعُدْ لديَّ أي مُيول رياضيَّةٌ، أو اجتماعية، أو عائلية، ولا نقاشات فكرية، ولا أحلام وردية إذا لم تكن تَنْبَثِقُ مِن القوقعة.

كان أصدقائي يَتَنَدَّرون بما أقول، وحتى صمتي لم يسلمْ منهم، فيردِّدون: (عاجلاً أم آجلاً سيخرج لنا بشيء عن القوقعة، ولو كانتْ أحفورة أكل الزمان عليها وشرب).

قضيتُ ثلاث سنوات أخطُّ هذا الكتاب في أوقات الفراغ التي غالباً ما كانتْ على متن الطائرة؛ حيث لا اتصال، ولا إنترنت ولا أفلام، بل خُلوة شرعية مع المشاعر والذكريات والأحلام، لم تكن لغتي العربية تشْفَع لي بالتعبير، ولم تكن أناملي في الكتابة تُسعفني في التحبير، فخرج هذا الكتاب نصفاً ممتلئاً بالتقطير، ولكن كُلِّي يقين أن القارئ لهذا الكتاب سيستشعر ما في خلدي، ويستيقن أن الغايةَ الشريفة تُبَرِّر الأخطاء المخيفة!

سـأكون عاجزاً بقَدْر ما أكون ممتنّاً لكرسي الأمير سلطان للإعاقـة السـمعية وزراعـة السـماعات، والـذي قـام علـى الشـراكة مع المجتمع للوصول للعالميـة، وها أنا أرى هذا الكرسي قد وضع اللبنات تلو اللبنات في بناء مركز عالميٍّ يحمل بكل شرف اسم المغفور له بإذن اللّه الملك عبداللّه بن عبدالعزيز.

يحمِـل الكتاب في طياته عدة فصـول تحكي واقع ضعف السمع وزراعة القوقعة في مملكتنا العزيزة الغالية؛ ففي الفصـل الأول: نبذة عن السـمع وأهميته، والفصل الثاني: عن قصـص حقيقية للقوقعة، والفصـل الثالث: عن زمالة التخصُّـص الدقيـق للأذن، والفصل الرابـع: حِكم من زراعة القوقعـة، والفصل الخامس: عن أنواع الزراعات السـمعية والشركات المصنِّعة.

وأحـبُّ أن أسـترعي اهتمـام القـارئ أن هذا الكتـاب يَحوي معانـاةً ونجاحاً، وقـد يُفهم منه أن المؤلـفَ يدَّعي الفضل والحنكـة، وهـذا بين العبد وربـه، واللّه من بيده محاسَـبة الإنسان على نياته؛ لهذا أدعوك أخي المنتقِد أن تتوقَّف ها هنا إذا كنتَ مِن المشـكِّكين فـي النيات، فلا أودُّ أن يكون هذا الكتاب سبباً لإثمك!

فـي المقابـل أدعو المعجبيـن بالمؤلف التوقُّـف هنا أيضًا؛ فهـذا الكتابُ ليـس لهم أيضًا؛ فصيغةُ الأنـا لا تعني قيام المؤلـف بـكلِّ هـذا، بل هـو فريـق كبيـرٌ لا يتسـع المقام لذكرهـم جميعـاً، ويُحبون أن يُخْتَـزَل ما قاموا بـه تواضعاً بصيغة المفرد.

الهـدفُ مـن هـذا الكتـاب تثقيـف المجتمع بإحـدى أكبر النِّعَم علينا بأسـلوب مَرِح بسـيط وعفـوي، يُقَرِّب الفكرة إلـى الأذهـان ويُثَبِّتهـا، ويوثِّق تاريخ رسـمه رجالٌ ونسـاء مخلصـون لبلد عزيز، لَـم يَجُرْ عليهم يوماً، وأهل كرام لم يبخلوا أبداً.

وختامـاً كلِّي يقيـن بكرمك أخي القارئ بدعـاء المولى لنا في ظهـر الغيب: أن يجعلَ عملنا خالصـاً لوَجْهه الكريم، وأن نكـون ممـن لا يريـدون جزاءً ولا شـكوراً، بـل يخافون يوماً عَبُوسـاً قَمطريرًا؛ لعل اللّه أن يَقِيَهم شر ذلك اليوم، ويلقيهم نَضْرَةً وسُروراً، ويجزيهم بما صبروا جنَّةً وحريراً.

أ.د عبدالرحمن حجر
١ شوال ١٤١٦ هـ

الأذن

الأذن وما أدراك ما الأذن؟

تُقَسِّم الأذن تشريحيّاً إلى ثلاثة أقسام؛ هي: الأذن الخارجية، والوسطى، والداخلية، تتكَّون الأذنَ الخارجية من صيوان الأذن، والقناة السمعية الخارجية، وتنتهي القناة من الداخل بغشاء شفَّاف يُعْرَف بطبلة الأذن، ويغطي هذه القناة جلد مهاجر من الطبلة باتجاه الصيوان، حاملاً معه كل الإفرازات والقشور؛ لهذا لا تحتاج الأذن إلى أي تنظيف، فهي تقوم بكل شيء بمفردها، بل بالعكس تماماً فأيُّ تدخُّل في هذا العمل قد يُؤدِّي إلى تراكُم الشمع، وانسداد القناة، وضعف السمع، ناهيك عن الالتهابات المتكررة والمزمنة، وأذكر هنا الحكمة الكندية التي تبين خطورة ذلك: «أصغر شيء تُدخله في أذنك هو كوعك»! كما أن تنظيف الأذن بالأعواد القطنية هو كحشو المدفع بالبارود.

الأذن الوسطى عبارة عن: تجويف هوائي خلف طبلة الأذن، يحوي ثلاث عظيمات هي: المطرقة، والسندان، والركاب، وهي أصغر عظيمات في جسم الإنسان. تلتصق عظمة المطرقة بالطبلة، وتلتصق عظمة الركاب بالنافذة البيضاوية للقوقعة، بينما يوصل هاتين العظميين ببعضهما البعض عظمة تسمى: عظمة السندان، وقد سُمِّيَتْ هذه العظيمات بهذه الأسماء لشبهها الكبير

بالمطرقة وبالسندان الذي يطرق عليه الحديد، بينما الركاب فهو – بكل حق – يشبه حلقة السرج التي يضع فيها الفارس قدمه لامتطاء صهوة الفَرَس.

تصل قناة استاكيوس الأذن الوسطى بسقف الحلق، وتقوم هذه القناة بمعادلة الضغط في تجويف الأذن الوسطى بالضغط الخارجي؛ لكي تتمكن طبلة الأذن من الحركة بشكل سلس، كما تقوم بتصريف السوائل من الأذن الوسطى للحلق، وفي المقابل تحمي الأذن الوسطى من دخول السوائل إليها من الأنف وسقف الحلق، ويتَّضح عَمَلُ هذه القناة عند ركوب الطائرة؛ حيث يقوم التثاؤب والبلع بفتْح هذه القناة، فيخف الضغط على الأذن، بينما يختلُّ عملُ هذه القناة عندما يُصاب الإنسان بالزُّكام، فيضعف السمع لديه، ويشعر بضغط وآلامٍ في الأذن.

كما تتصل الأذن الوسطى بجيوب هوائية خلف الأذن، متفاوتة الحجم، شبيهة بالجيوب الأنفية، ولَم يصلِ العلم بعدُ إلى معرفة دورها الوظيفي حتى الآن، وهيَ ما يتم من خلالها الدخول إلى الأذن الوسطى عند زراعة القوقعة.

أمَّا الأذن الداخلية فتَنْقسم إلى قسمين: الجزء الأمامي منها يشبه الحلزون بلفتين ونصف تقريباً، لهذا يسمى بالقوقعة، وهذا الجزء هو المسؤول عن السمع، والجزء الخلفي يشبه ثلاثة أهلَّة ملتحمة مع بعضها البعض، بزوايا قائمة، وتتوازى معَ القنوات الهلالية في الأذن الأخرى، وهذه القنوات تصبُّ في تجويف ملتصقٍ بالقوقعة، وهذا الجزء الخلفي للأذن الداخلية مسؤول عن التوازن، ويوجد

هـذا الجزء من الأذن في أصلب عظم في جسـم الإنسـان يُعـرف بالعظم الصخري، وهـذا يدلُّ على عظمـة الخالق، وعلى أهمية هذا العضو للإنسان.

أمَّـا تجويـف القوقعـة فينقسـم إلـى ثـلاث حجـرات على امتداد القوقعة، تُعرف بالسقالة، وهي بحق تُشبه سقالة المئذنـة، والتفـاف الدرجـات صعـوداً إلى آخرهـا، والحجرة الوسـطى تقـوم بتحليل الصـوت الذي يصـل إليها على شـكل موجـات تنتقـل عبـر الحجرتيـن الأخريـن اللتين تتصـلان مع بعضهما البعض من جهة، بينما تنتهي كل منهمـا بنافذة؛ إحداهما على شـكل بيضـاوي يتصل مع عظمة الـركاب في الأذن الوسـطى، بينمـا النافذة الأخرى على شـكل دائري مقفلة بغشاء، وتستخدم هذه النافذة كمدخل للألياف الكهربائية في زراعة القوقعة.

تُشَـكِّل القنوات الهلالية جزءاً مهمّاً في منظومة التوازُن لجسـم الإنسان ومسـاعدة العين على تثبيت الرؤية عند تحريـك الـرأس، لهـذا قد يُسَـبِّب أي خلل فـي عمل هذه القنوات دواراً شـديداً مع غثيان وقيءٍ وعدم اتزان، وليس ما يشاع أن هذا بسبب الأذن الوسطى.

يَخْـرُج مـن الأذن الداخلية ثلاثة أعصـاب باتجاه المخ: عصب السـمع، وعصبَـا توازُن، عبـر قناة ضيقة يُشـاركهم فيها عصب الوجه، ومن ثَم تقوم هذه الأعصاب بإيصال السـمع والاتـزان إلى مراكز الحس العليا، والتي تقوم بدورها بفكِّ شـفرة هذه المعلومات في مراكز محـددة، وهذه المراكز لديهـا مـن المخـزون المعرفي مـا يُؤَهِّلهـا لترجمة هذه

المعلومـات إلى مشـاعر وأحاسـيس وردات فعـل وكلام يُفصح به الإنسان عن نفسه.

بعـد معرفـة تقسـيمات الأذن أصبح من السـهل معرفة أمراضهـا، ومن ذلك ضعف السـمع؛ حيث إنه يُقَسَّـم إلى نوعيـن حسـب مـكان المرض، فـإذا كانت المشـكلة في الأذن الخارجية أو الوسطى سُمِّي: (ضعف سمع توصيلي)، بينمـا يُطْلَق على ضعف السـمع الناتج عن مشـكلة في الأذن الداخلية أو عصب السـمع: (ضعف السـمع الحسـي العصبـي)، وهنالـك نـوع ثالـثٌ يُسـمى: (ضعف السـمع المختلط)، وهو ما يجمع بين هذين النوعين.

أمـا عصـب الوجـه فهـو عصـب يحمِـل فـي غالبـه أليافاً عصبيَّـة حركية، تقوم بالتحكم فـي جميع حركات الوجه، ومـن المهـم معرفـة أن هـذا العصب لـه علاقـة وطيدة بـالأذن، فهو يلتـفُّ من أمام القوقعة، ويجـري محاذياً لها، ويلتصـق بالقنـاة الهلاليـة الجانبيَّة ومن ثَم يغـادر الأذن، وكما تلاحظون فهنالك تلاحم بين الأذن الداخلية وعصب السـمع، وهذا ما يُشَـكِّل الخطورة في إجـراء عملية زراعة القوقعـة، لذا يتوفَّر في كل مراكز زراعة القوقعة العالمية جهـاز الكشـف عن عصب الوجـه؛ فقد أصبـح وُجُودُه من المسلَّمات في إجراء هذه العمليات، ومن فضل اللّه علينا أنه لم يُصَبْ أيُّ مريض بضعفٍ في هذا العصب، وهذه من إحدى الكرامات لهذا المركز.

السمع أم البصر

من اللطيف أنَّ طلبة الطب في كليتنا يَدْرُسون دورةَ العيون والأنف والأذن والحنجرة في نفس الوقت، وهذا يدُلُّ على مدى التلاحُم والأُلْفة بين القسَمَيْنِ، مع بعض التنافُس الشريف الذي نسعى من ورائه إلى الرُّقيِّ معاً بقسمينا بما يخدم وطننا الغالي، يَمُرُّ علينا طلَبةُ الطبِّ، ولا يكادون يُمَيِّزون بين قسمينا، وكأنهما قسم واحد برئيسين! لكن الدعابة بيننا لا تُفْسدُ للوُدِّ قضية، ولعل من الدعابة أن نذكُرَ بعض ما نتفَوَّق به على تخصص العيون، مع أن هذا التفوُّق لا يُعَدُّ ولا يحصى (في مسمعنا)، والميدان يا حميدان!

دائماً ما يُقال: السمع والبصر، كما يقال: أبو بكر وعُمَر، والشمس والقمر، والأم والأب، هذا الاقترانُ نابعٌ عن قربهما، وتداخُل عملهما، وكون كلٍّ منهما مُكَمِّلاً للآخر، كما يكمل القمرُ نورَ الشمس، ويُكمل الأب دور الأم، وتُكمل الأم دور الأب، وليس في هذا استنقاصٌ لأحدهما، مع بعض التفضيل لمَن يُذْكَرُ أولاً، هذا التكامُل والتجانُس في العمل بين الأذن والعين يجعل من العمل المشترك نجاحاً لكل الجسد، والذي يشمل كِلا العضوين: الأذن والعين.

دَعُونا نتمعَّن في الأذن على حدة، ونُقارنها بالعين؛ حيث إنَّ الكثير من الناس يَجْهل هذا العضو وأهميته في جسمنا، ويتوقع أن العين أهم من الأذن، ويا للهول! هؤلاء الناس أيضاً يَتَوَقَّعون أن الماء أهم من الأكسجين،

ولكي نعرف كم نحن مغبونون في الأذن مثلمَا نحن مغبونون في الأكسجين، فدَعُونا نَنْظر إلى حالنا عند فقدهما، دَعُونا نحرمُ أنفسنا من الماء والأكسجين، ونرى أيهما الأهم، بمعرفة أيهما نحن في أمَسِّ الحاجة إليه؟! في الحقيقة بمقدورنا الصيام عن الماء لعدة ساعات، وقد تصل إلى أيام، ولكن لن نتمكَّن من العيش لو انقطعنا عن الأكسجين أكثر من بضع دقائق، وقِسْ على ذلك السمع وهو أكسجين الحياة، والبصر وهو الماء الزُّلال، لسنا هنا لنُنْكِرَ العين وأهميتها؛ لأنه من الجنون أن نقول: إن الماء غير مفيد، وقد قال تعالى عنه: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ} [الأنبياء: ٣٠]، فكذلك البصر الذي قال عنه نبينا محمدٌ صلى اللّه عليه وسلم عن ربه: ((إذا أخذتُ كريمتي عبدي في الدنيا، لم يكن له جزاء عندي إلا الجنة)).

دعونا نستشهد بالقرآن فهو مرجعنا الأول، فالقرآنُ هو في مُجْمَلِه مُعجزةٌ سَمْعيَّةٌ، تحدَّى اللّه به كل فصحاء العرب أن يأتوا بمثله، كما أنَّ السمع ذُكِرَ في القرآن ١٨٥ مرةً، بينما ذُكر البصر بمعنى الرُّؤية ٨٨ مرة فقط، أضف إلى ذلك أن لفظي السمع والبصر ذُكِرَا معاً ٣٨ مرةً، يُقَدَّمُ السمعُ في جُلِّها على البصر، ومن ذلك قوله تعالى {وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ} [المؤمنون: ٧٨]، وقال تعالى: {إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا} [الإسراء: ٣٦]، ويرى بعضُ المفسِّرين أن هذا التقديم يأتي من أهمية السمع على البصر، ليس هذا فحسب، بل ذُكِرَ الصمَم مع العمى في ٨ آياتٍ يُقَدَّم في

أغلبها الصَّمَم، ومنها قوله تعالى: {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ} [البقرة: ١٨].

الآن دَعُونا نتعرَّف على السمع طبيّاً، ونقارنه بالبصر لتتضحَ الرُّؤية:

١. أول حاسة:

السمعُ يُعَدُّ أول حاسة تكتمل في النمو، وتبدأ بالعمل في جسم الإنسان، وذلك قبل الولادة، فالجنينُ يسمع في الشهر الخامس من الحمل، ولكن لا يُبْصِرُ جيداً إلا بعد الولادة بعدة أشهر، وهي الفترة التي يبدأ فيها الطفلُ بالالتصاق بأهله، وإنكار الغُرباء.

٢. آخر حاسة:

السمعُ هو آخر حاسة تربطه بالحياة؛ قال صلى اللّه عليه وسلم: ((إذا وُضِعَ الميت في قبره، وانصرف الناس عنه، إنه ليسمع قرع نعالهم وهم عنه مُدْبِرُون)).

٣. أقوى حاسة:

السمعُ أقوى الحواسِّ في جسم الإنسان، فعلى سبيل المثال لا الحصر: يُفْقَد البصر قبل السمع في النوم والتخدير والإغماء، ويرجع السمع أولاً عند الاستيقاظ منها جميعاً، كما أن بمقدور حاسة السمع اختراق الجدران والحواجز وعدم الحاجة للضوء، بل أكثر من ذلك كله فبمقدورنا أن نسمعَ عن طريق عظام الجمجمة، ومن هنا نشأتْ فكرة السَّمَّاعات العظمية (الباهة)، فسبحان اللّه!

٤. أوسع إحساسًا:

بمقدور حاسّة السمع الْتِقاط الأصوات بكل الزوايا من حولنا، بينما البصر محدودُ الأبعاد، فنحن لا نُبصر إلا في مجال محدود بدرجة ١٨٠ أفقيّاً، و١٤٥ درجة عموديّاً، إذا لم نكن جاحظي العينين.

٥. أكثر حماية:

من البديهي جدّاً أن تكونَ شدة الحماية متناسبةً مع الأهمية، فالأذن محميةٌ بقناة متعرِّجة غائرة في الجمجمة، بعيدة كل البُعد عن الإصابات، كما أن القوقعة أو الأذن الداخلية تستقر في أقوى عَظْم في جسم الإنسان يُعرف بالعظم الصخري (Petrous Bone)، ناهيك عن أن قشرةَ السمع في المخ توجد في كِلْتا الجهتين، وهي بعيدةٌ كل البُعد عن بعضهما البعض، فلو أصيبتْ جِهَةٌ بوَرَم أو جلطةٍ أو نزيفٍ تكون الجهةُ الأخرى بعيدةً عنها، وقادرةً على العمل، وتعويض النقص، فسبحان الخالق!

أما البصرُ فحمايته الخارجية والداخلية لا تُقارَن بالسمع، فالعينانِ بارزتان لتتمكَّنا من الإبصار وقشرة المخ لكلتا الجهتين، مجتمعة في مؤخرة الرأس.

٦. أكثر تأثيرًا:

كما ذكرنا فإنَّ أهمية الشيء تتَّضح عند فَقْده، ففاقدُ السمع يعاني الكثيرَ والكثير، فعلى سبيلِ المثال لا الحصر: ضعفُ السمع يؤثِّر بشكلٍ كبيرٍ جدّاً على التواصُل مع الغير في المنزل، والشارع، والعملِ، والمدرسة، وهذا

التواصُل هو ما يَنْبَني عليه أواصرُ المحبة، ولو اقتربنا أكثر من المشكلة لوجدنا عدم مقدرة الأصم على التعايُش مع المجتمع بشكل جيد، وحِرْصَهُ على العيش مع أقرانه الصُّمَّ الذين يتواصَلون معه بشكل جيد بلغة الإشارة، فلا نستغرب حِرْصَ الأصَمِّ على الزواج من امرأة تُشاركه التواصل الجيد في حياته، كما لا نستغرب حُبَّ الأصم لمجتمع الصُّمِّ أكثر من حبه لأسرته التي لا تُتْقِن لُغة الإشارة؛ ولهذا تكوَّنتْ في جميع الدول تجمُّعات خاصة بالصم، ولم نسمعْ عن تجمعات خاصة بفاقدي البصر الذين لا يجدون حَرَجاً في التواصُل مع مَن حولهم على جميع الأصْعِدَة.

٧. أكثر حرَجاً ومعاناةً:

يُعاني مريض ضعف السمع – البسيط والمتوسِّط – من صعوبة في فَهْم بعض الكلمات، فتلتبس عليه الكلماتُ المتشابِهة؛ مثل: سيَّارة وطيَّارة ونحلة ونخلة، مما يجعله عُرْضَةً للاستهزاء من الآخرين، ودُعابةً بين أقرانه، أما الحريصُ من المرضى فإمَّا أن يَطْلُبَ من المتحدِّث رفْعَ صوته؛ مما يُتعب المتحدِّث ويُتعب المستمع؛ حيث إنَّ ارتفاعَ الصوت يَزيد من حدته، فيُصبح قريباً من صفة العتاب أو التهديد، والخيار الثاني: أن يطلُبَ من المتحدِّث إعادة الحديث فيشك المتحدِّث في مدى تركيز المستمع واهتمامه بالموضوع، أما الخيار الثالث فهو: أن يتجاهل بعض الكلمات تلافياً للحرَج، فيقع في حرَجٍ أكبر بعدم التفاعُل الجيد مع المتحدث، والخيار الرابع الذي قد يكون نِقْمَةً وليس نعمةً هو: قراءة الشِّفاه، حيث يُطَوِّر ضعيف

السمع ملَكة التعرف على الكلام عن طريق متابعته لحركة شفاه المتحدِّث، وهذا يجعل العديد من الناس تقول عنه: «هذا يسمع ما يبغي، وما لا يبغي سماعه لا يسمعه»، فيَفْقِد مصداقيته وثقة الناس به، وهم لا يعلمون عن هذه الملَكة شيئاً.

هذه الخياراتُ لدى ضعيف السمع نراها بوضوح عند كبار السن، ليس هذا فحسبُ، بل غالباً ما يُرافق ضعف السمع ظاهرة أشد صعوبةً على المريض، تُعرف بتجمُّع الصوت؛ حيثُ يتجمَّعُ الصوتُ فجأةً عند ارتفاعه؛ فيُسَبِّب ضجيجاً لا يتقبَّله المريضُ، ومثال ذلك كبير السن أيضاً الذي لا يسمع جيداً، ويشتكي من إزعاج الأطفال له – تجمع الصوت –، ومع أنَّ أبسط الحلول في مثل هذه الحالات هو لبس السماعة، إلا أنه حلٌّ غيرُ مقبول عند العديد من المرضى. كلُّ هذه الأمور لا يقع فيها مرضى الإعاقة البصرية، كما أنهم لا يتحرَّجون مِن لبس النظارة.

سُئِلَت الأديبةُ والناشطة الاجتماعية الأمريكية هيلين كيلر عن السمع والبصر، وقد فَقَدَتْهُما منذ طفولتها فقالتْ: (فَقْدُ البصر يَفْصِلُ الناس عن الأشياء، بينما فَقْدُ السمع يَفْصِلُ الناس عن الناس)! نعم فالسمعُ هو من يُوطِّد العلاقة بين البشر، والكلُّ مُجْمِعٌ على أنَّ علاقة البشر ببعضهم البعض أهم من علاقتهم بالأشياء من حولهم.

٨. الأكثر انتشارًا:

تُعَـدُّ الإعاقـة السـمعيَّةُ مِـن أكثـر الإعاقات انتشـاراً على مسـتوى العالـم، فمـن كل عشـرة هنالـك إنسـانٌ لديه مشـكلة في السـمع، ومِن كل ثلاثة فوق الستين هنالك إنسان لديه مشكلة في السمع، وفي مجتمعنا السعودي علـى وجه الخصـوص النِّسـبةُ مُضاعَفَـةٌ؛ فمِـن كل مائة سـعودي تحت سـن الثامنة عشـرة هنالك خمسـة عشر سعوديّاً لديه مشكلة في السمع!

وهـذا ناتجٌ عـن العديد مـن الأمـراض الوراثيـة – التي لم تُكْتَشَـفْ بعـدُ – والناتجـة عـن زواج الأقـارب، ناهيـك عن التقصير في اكتشـاف هذه الحالات في مجتمعنا بسـبب قلـة التثقيـف الصِّحِّـي، ووعـي المجتمـع بهـذه الإعاقـة وتأثيرها على الفرد والمجتمع.

أضف إلى ذلك عدمُ وُجُود كَشْف مُبَكِّر لهذه الحالات لدينا، والـذي أصبح طبيّاً مِن المُسَـلَّمات، مثلُـه مثل التطعيم، وكلـي أمـلٌ أن يطـول بي العمـر وأرى شـهادة التطعيم تشمل خانةً لقياس السمع، وليس ذلك على اللّه بعزيزٍ.

ولا يفوتنـي أن أذْكُرَ – والاعتـرافُ بالحقِّ فضيلة – أننا نحن الأطباء ومختصو السمعيات والتخاطُب السببُ الحقيقي في هذا التقصير، وليس هذا جَلْداً للذات، فقد قصَّرنا في إبراز هذه الحقائق للمسـؤولين وللمجتمع، ويجب ألاَّ يُلْقِيَ أحدٌ اللوم على إخوتنا الصم، فلا صوت لهم يُسمع.

٩. النصف الآخر:

بعد كلِّ هذا نتفق جميعاً على أن السمع أهم من البصر، ولكن الحقيقةَ الأخرى المُغَيَّبة أن السمع يُمَثِّل فقط نصف عمل الأذن، أما النصفُ الآخر فيقوم على الحاسَّة السادسة لدينا نحن البشر، وهي التوازُن، والذي تلعب الأذن الداخلية فيه الدورَ الكبير في المحافظة عليه، ولا يتَّسع الوقت للتحدُّث عنه، ولكن أكتفي بإجابة أحد المرضى الذي كان يُعاني من دوار شديد بسبب الأذن عندما طُلب منه أن يختارَ بين فَقْدِ السمع أو البصر أو التوازُن، فقال: أتمنى أن أفقدَ سمعي وبصري، ويرجعَ لي توازني!

فالحمدُ للّه على نعمة التوازُن والسمع والبصر.

١٠. الغزل:

تغزَّل الشُّعراء بالعين وجمالها، ولكن لم يغفل البعضُ الأذن، وكيف لهم أن ينسوها بأبياتٍ تُقارع العين، ومنها قول الشاعر حسن الراجح:

سَمِعْتُ يَوْماً طَبِيبَ العَيْنِ مُفْتَخِراً
أَنْ قَدْ غَدَا لِسَفِينِ الطِّبِّ رُبَّانَا

لَمَّا سَأَلْتُ طَبِيبَ الأُذْنِ قَالَ لَنَا:

(الأُذْنُ تَعْشَقُ قَبْلَ العَيْنِ أَحْيَانَا)

أَمَا سَمِعْتَ كَلامَ اللّه في عَبَسٍ
إِنْ نُغْمِضُ العَيْنَ لَنْ نَنْسَاهُ آذَانَا

وَقَدَّمَ اللّٰهُ لَفْظَ السَّمْعِ فِي سُوَرٍ
وَآخِرُ العِلْمِ وَالإبْصَارِ إِمْعَانَا

وقال بَشَّار بنُ بُرد:

يَا قَوْمُ أُذْنِي لِبَعْضِ الحَيِّ عَاشِقَةٌ
وَالأُذْنُ تَعْشَقُ قَبْلَ العَيْنِ أَحْيَانَا

لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ الحُبَّ يَقْتُلُنِي
أَعْدَدْتُ لِي قَبْلَ أَنْ أَلْقَاكَ أَكْفَانَا

بعد هذا دَعُونَا نَنْظُر ونسمع إلى ما تَوَصَّل إليه العلمُ الحديثُ في مجال السمع والبصر، والمقارنة هنا حتْمِيَّةٌ، فلن نَنْفَصِل يوماً عن العين، مع أن العينَ انْفَصَلَتْ عنَّا في تخصصها قبل بضعة عقود، بعد أن كان طبُّ العيون والأنف والأذن والحنجرة تخصصاً واحداً، كما أنها سَبَقَتْنا في إيضاح أهمية البصر للمجتمع والمسؤولين، فأصبح هنالك مستشفى تخصصيٌّ للعيون، ولولا الغيرة ما كبرت الصغيرة، فلربما نكبر نحن في بلادنا لو غِرْنَا من العيون.

دَعُونا نَتَفَكَّر فيما وصل إليه العلمُ في مجال السمع، لقد أصبح من الممكن عِلاجُ أصعب حالات السمع تعقيداً وتأهيلها، حتى تتمكن من السماع مرة أخرى، وقد أصبح هذا ممكناً عند إجراء عمليات زراعة السماعات؛ مثل: القوقعة الإلكترونية والسماعة العظمية «الباهة» وغيرها، وأصبح بإمكان الأصم السماع والتحدُّث، بل والتعلم في المدارس العامة، أسوة بقرنائه الأصحاء، وإلى الآن لم يتمكن الطِّبُّ من علاج ضعف البصر العصبي بما يُوازي السمع.

لقد أصبح من الممكن اكتشافُ العديد من الجينات المسبِّبة لضعف السمع، وأصبح في الإمكان تشخيص هذه الأمراض مبكراً، بل والحد منها، وتقوم بلادنا الغالية على ثروةٍ علميةٍ للبشرية في اكتشاف الجينات المسببة لضعف السمع، وذلك بسبب انتشار الإعاقة، وبسبب تزاوج الأقارب، وكِبَر عدد أفراد العائلة الواحدة، والزواج المبكر، وبسبب كون الجينات محميَّة جدّاً، فلا يوجد اختلاطٌ في الأنساب كما نسمع به في الشرق والغرب، كلُّ هذا يجعل بلادنا على ثروة علمية عالمية تُحْسَد عليها، ولن أكون مبالغاً لو قلتُ: إنها تضاهي ما لدينا من ثروةٍ اقتصاديةٍ في البترول!

أمام كلِّ هذه الحقائق نُسَلِّم بأن الأذن أهم مِن العين وفي كل خير، وكلنا أمل أن يكونَ للأذن مستشفى تخصصيٌّ يُوازي مستشفى الملك خالد للعيون الذي قام بنقلة نوعية في علاج العديد من الحالات الصعبة في بلادنا الغالية، بالإضافة إلى تدريب الكوادر الوطنية التي أصبحنا نُباهي بهم خريجي أعرق المستشفيات العالمية.

والسؤال: إذا لم يكن الآن، فمتى يكون؟ وإذا لم يكن في السعودية، فأين يكون؟

قصصي مع القَوْقَعَة

عشرة يا دكتور

جاء إلى عيادتي أحدُ أساتذة الجامعة، يَشكو من ضعف في السمع يُعيقه عن فَهم ما يُقال، خاصَّة عند ازدحام الأصوات في قاعة المحاضرات، أو في المناسبات، مما يُشَوِّش عليه، كما أنَّ هذا يُوقعه في الحرج الكبير أمام طلبته وأقاربه، بالإضافة إلى الْتِباس بعض الكلمات عليه؛ مثل: (نحلة ونخلة)، (سيارة وطيارة)، وليس هذا فحسب، بل يرافقه طنينٌ مزعجٌ، خاصَّة قبل النوم، بالإضافة إلى عدم تحمُّله للأصوات المرتفعة، وكان في غاية الاستغراب كيف أنه لا يسمع جيداً، والأصواتُ تُزعجه أكثر من غيره!

استمعتُ إلى محاضَرة طويلة من هذا الدكتور عن مشكلته، إلاَّ أنَّ سَرْدَهُ للمشكلة كان جميلاً جدّاً، لدرجة أنني نسيتُ الوقت معه، ونسيتُ أن عليَّ أن أرى عشرين مريضاً في هذه العيادة المزدحمة، ونسيتُ أن جميع المرضى لديهم هذه الشكوى المتكررة من ضعف السمع وأعراضه، ومشاكله الاجتماعية والنفسية، وكأني بأسلوبه الجميل أستمع لهذه الشكوى لأول مرة، إنَّ من البيان لسِحْرًا!

كنتُ حريصاً جدّاً على أن يكونَ هذا الدكتور مؤمناً بهذه المشكلة، وحريصاً على حلها؛ لأنَّ تقبُّل المريض لأي علاجٍ

يَنْبَني على اقتناعه بحجم المشكلة.

طَمْأَنْتُه أن المشكلة إن شاء اللّه بسيطة، فهذا ربما يكون ضعفاً في القوقعة وعصب السمع، لهذا يَصْعُب عليه سماع الأصوات وتمييز الكلمات، والذي غالباً ما يُصاحبُه طنين في الأذن يظهر بشكل أوضح في الأماكن والأوقات الهادئة، وخاصَّة قبل النوم، كما أن القوقعة لا تتحمل الأصوات العالية لضَعْفٍ فيها، ولكي نتأكد من هذا فإن عليه عمل تخطيط للسمع.

حضر هذا الزميلُ بعد دقائق بتخطيط للسمع يُوضِّح أنه يعاني من ضعف سمع حسي عصبي في كلتا الأذنين في الترددات العالية، وهذا غالباً ما يُصاحب كبار السن، ولكن وَجْهُه الطفولي الجميل وابتسامته اللذيذة لا يُوحيان بأنه تجاوز الثلاثين، مع أن الشيب قد غزا شعرَه، إلا أن الشماغ قد أخفى تحته ما أفسد الدهر!

قلتُ له: "قبل كل شيء، كم عمرك؟" فقال: "سبعة وأربعون عامًا"، لم أكنْ لأُصَدِّق، فلم أكنْ أتوقَّع أنه جاوز الثلاثين، فقلتُ له: "ما شاء اللّه، لا يبدو ذلك عليك، هل تصدق أن الفرق بيننا عشر سنوات؟"، فقال لي: "بل أنت الذي لا يبدو عليك أنك تجاوَزْتَ الخمسين!"، فقلت له بصوت يَسْمَعُه من على بُعد عشرة أميال: "خمسين؟!"، فقال لي: "أنت مَن قال: إن عمره سبعة وخمسون، فالفرقُ بيننا عشر سنوات". فقلتُ له: "أنا أصغر منك بعشر، ولستُ أكبر منك"!

حـاوَلَ أن يعتــذرَ، ويُقَدِّم أسَـفَهُ، وأنها زلة لسـان، وأنه لم يتفَحَّصْ وجهي جيداً، وأنه أكبرني كطبيب، وأن...، وأن...، إلاَّ أنَّ جميع ما قال لم يشـفعْ له، فقلت له: "أنت تعاني من ضعف بصر أكبر من ضعف السمع"!

وبعـد أن تمازحنـا بالدعابـة، طلبتُ منه أن أكتـبَ ما جرى بيننـا، فـكان سـعيداً بذلـك، إلا أننـي عندمـا ذهبت إلى المنزل بـادرتُ بكتابة وصيتي أولاً قبـل كتابة هذا المقال بعد أن أحسسـتُ بآلام في الظهـر، وصعوبة في التركيز، وضعفٍ في السمع والبصر!

قوقعة تفجر كنيسة

العديدُ منَّا سمع بالكثير من الخرافات والأباطيل والتُّرَّهات والإسـرائيليات والقصص المستحيلة، ناهيك عن العنقاء والغـول والخل الوفـي، ولعلَّ من أغرب وأعجب ما يَسْـمَع به إنسـانٌ في حياته هذه القصة، التي لو لم أكنْ شـاهداً عليها لما صَدَّقْتُها.

أجريـتُ زراعة قوقعة لمريضٍ مـن دولة مصر الغالية، وكان في العشـرينيات من العمر، والدُه بروفسـور في الجامعة معنا، أفنى زهرة حياته في خدمة هذا الوطن، وبعد إجراء العملية اختفى ابنه، ولـم يتابعْ معنا، وكذلك أغْلَق والدُه الجوال، ومع زحمة المرضى وكثرة الانشـغال نسـيتُ هذا المريض كما نسيتُ غيره، واللّه المستعان.

كان والـدُه ينتظـر معه في الخارج مـع بقية المرضى، ولم يتصـلْ يوماً يرغب فـي موعد قريبٍ، ولا تقديـم للعملية،

ولا...، ولا...، ولا...، ولـم يقلْ يومًا: أنا أسـتاذ دكتور في هذه الجامعـة، بل قـدَراً عَرَفْتُ عنـه من أحـد المُختصين، فلم يكنْ يُصَرِّح بمنصبه ومكانته، فقد كان بروفسوراً بأخلاقه وتواضعه.

كنـت أختلـق الأعـذار لغيابـه وتغييـر جوالـه، وربما حضر لعيادتـي وقابل أحدَ الزُّملاء في العيادة، ولم يرغبْ في أن يُزعجني – في نظره – بمتابعة ولده شخصيّاً، على عكس كثيـرٍ من المرضـى الذين يَرَوْنَ أن حالتهـم أهم حالة في العيادة، ولهم الأولوية على غيرهم.

دارت الأيامُ الطوال، بل الأشهر، وتَذَكَّرْتُه، وسألتُ عنه، وإذا بالفاجعة أنَّ هذا المريضَ الذي لا يسـمع ولا يُحْسِنُ الكلام هـو المتَّهم الرئيس في تفجير كنيسـة القِدِّيسـين في الإسـكندرية، مطلع عـام ٢٠١١ م، شـيءٌ لا يُصَدِّقُه عقلٌ ولا ضمير حيٌّ، فكيف بإنسان أصم ضعيف بسيط لا يستطيع التواصل مع أقرب الناس إليه إلا بالإشارة أو قراءة الشفاه أن يقوم بهذا؟!

كنتُ أعرف أنه لَم يستَطِعْ فَهم ما أقول بابتسامة حزينة تُدمـي الصخرَ، فهل بعـد كلِّ هذا يقـوم بالتدبيرِ لعملٍ إرهابيٍّ مُتْقَن، بالتنسيق مع جيش أجنبيٍّ؟ ولماذا؟ ليزهقَ أرواحاً بريئةً أوصى بها رسولُنا صلى اللّه عليه وسلم، كما جاء في الحديث الشـريف: ((اسـتوصوا بالقِبْـط خيرًا؛ فإنَّ لهم ذِمَّةً ورحمًا)).

جاءنـي والدُه بالبُشـرى، فبعد سِـجنٍ انفراديٍّ فـي زنزانة مُظْلِمَةٍ لعدة أشـهر، تَمَّ الإفراجُ عنه بقرارٍ وزاريٍّ ينفي عنه

جميعَ التُّهَم! ولَم تَكْتَمِلْ سَنَةٌ على تفجير الكنيسة حتى سَقَطَتْ حكومةٌ كاملة، بل وأُودِعَت السجن؛ فسبحان مَن لم يجعل بينه وبين دعوة المظلوم حجاباً.

والسؤالُ: هل كانتْ دعوة هذا الضعيف؟ أو كانت دعوة غيره السبب في هذا العهد الجديد لوطنٍ كان وما زال عرين الأمة العربية والإسلامية؟!

بعضُ الزُّملاء سمع بهذه القصة العجيبة، ولم أَسْلَمْ من التعليقات؛ فمنهم مَن قال: قد تكون زراعة القوقعة هي التي خَطَّطَ بها! وقد تكون شريكاً له في الجريمة! لو علِمَتْ بك المباحثُ الدولية لكنتَ بجواره! ومنهم من قَال: إنَّ القاعدة لديها أيادٍ خفيَّةٌ في برمجة القوقعة المزروعة! ومنهم من قال: يجب أن تنفي أي علاقة بينك وبين تنشيط الخلايا الإرهابية بزراعة القوقعة!

القواقع الكوبية

حضرتُ أحد أكبر الاجتماعات الدولية لأطباء الأذن، وكان ذلك في مدينة أنتاليا التركية عام ٢٠٠٨، وكان هذا الاجتماعُ يُعْقَدُ كلَّ أربع سنوات، ويُناقَش فيه المستجَدَّات في أمراض الأذن وضعف السمع وزراعة السَّمَّاعات، وقد استمعتُ إلى العديد من تجارب الدول المختلفة في زراعة القوقعة الإلكترونيَّة، ثُم فُوجئتُ عندما قرأتُ عنواناً لمحاضرة عن تجربة دولة كوبا مع زراعة القوقعة، ومع ضيق الوقت في المؤتمر، إلا أنني أحببتُ أن أستمع إلى تجربةِ دولة فقيرة مثل كوبا، وهل يوجد قواقع في كوبا؟!

حاولتُ أن أضعَ في مُخَيِّلَتي ما سوف يقوله المتحدث عن زراعة القوقعة؛ لأتَنَدَّر على ما سوف أسمع، فأنا في غمرة الأبحاث في المؤتمر أودُّ أن أقضيَ وقتاً للمَرَح!

كوبا، أنا لا أعرف عنْ كوبا إلا أنها دولة فقيرة تشتهر بالسيجار الكوبي، وأعرف فيديل كاسترو الحاكم، وأنَّ له صولات وجولات مع أمريكا، وأنَّ نظامَها شُيُوعي، وشعبَها يُعاني الفقر، هذا كلّ ما تمتلكُه ذاكرتي الضعيفة بعد عصرها حتى نشفتْ عن كوبا!

قام أحد الأطباء الكوبيين وبلغة إنجليزية مكسرة ليَتَحَدَّث عن برنامج زراعة القوقعة الإلكترونية فيها، وكيف أنهم بإمكاناتهم البسيطة قاموا بزراعة العديد من الحالات الصعبة، ومنها أطفال: فاقدي البصر، وكيف أنهم قد قاموا بتأهيلهم بعد عَمَليَّة الزراعة، وأظهروا للحضور أفلاماً فيديو للمَرْضى تُوَضِّح الإمكانات البسيطة لفريق العمل لديهم، والمُضْحِكُ أن أحد المرضى كان يَسْكُن في عشة، ولو أنه باع هذه القوقعة التي زُرِعَتْ له لاشترى بها قصراً في كوبا، "قد يضاهي قصر فيديل كاسترو نفسه".

بعد أن انتهى هذا المتحدثُ من شرح هذه التجربة الخارقة في نظري، والتي بَهَرَتْني بكلِّ ما تَحْمِلُ هذه الكلمة من معانٍ، قام بعض المستمعين وانْتَقَدَهُ، وذَكَر أن أمام كوبا مشواراً طويلاً في هذا المجال، لقد كان ما قام به الكوبيون ضربةً قويةً تَلَقَّيْتُها، تلتْها ضربةٌ أخرى من المستمعين، استيقظتُ بعدها من حلم جميل وهو أننا قد أصبحنا مُتَقَدِّمين في السعودية في خدمة

مرضى الإعاقة السمعية، وخشيت أن أتلقَّى الضربةَ القاضية في الجولة الأولى عندما يسألني أحدهم عن برنامج زراعة القوقعة في السعودية، حيث إنه ما زال في نظري يَحْبو في خطواته الأولى، فبادرتُ بالتأكيد على أنَّ أمام كوبا مشواراً طويلاً، هذه الدولةُ الشيوعيةُ التي لم يمنعْها نظامُها الشيوعيُّ المنغَلق من استيراد هذه الأجهزة باهظة التكلفة من الخارج، لأنها أدركت الاستثمار الحقيقيَّ فيها.

علمتُ بأن أمامي وأمام كل غيور على بلده مشواراً أطولَ، حيث إنَّ مثلَ هؤلاء المرضى مُتَعَدِّدي الإعاقة نَتَرَدَّد في الزراعة لهم أحيانًا؛ خوفاً من ألاَّ نتمكَّنَ من زراعتها لمن هو أحوجُ منهم؛ بسبب قلة عدد هذه الأجهزة باهظة التكْلِفة، والتي أثبتت الدراسات بأنها ليستْ مجرد علاجٍ، بل هي استثمارٌ حقيقيٌّ، يعود بالرِّبح الوفير بعد أن يتمكَّن المعاقُ سمعيّاً من ممارسة حياته الطبيعية، والانخراط في خدمة المجتمع، كما أننا نخشى – أحياناً – من عدم مقدرتنا على تأهيلهم بعد الزراعة لإصابتهم بعدة إعاقات.

والسؤال الذي يتبادر إلى الذِّهن أمام أي مشكلة أو تقصير: من المسؤول؟

والإجابة في نظري هي: إنني أنا المسؤول، وأخاف أن يكونَ هذا من العِلم الذي يُعاقَب كاتِمُه، لهذا فأنا أبلغ بما سمعتُ ورأيتُ، وكلُّ إنسان يسمع عن هذه المشكلة سوف يكون مسؤولاً أمام اللّه، اللهم هل بلغتُ، اللهم فاشْهَدْ.

وختاماً أَوَدُّ أن أؤكدَ على أن زراعة القوقعة ليستْ عَمَليَّة لزراعة جهاز غال الثمن، إنها مشروع طبيٌّ متكامل، يبدأ بتثقيف المجتمع والاكتشاف المبكر لهذه الحالات، بالإضافة إلى تأهيل المرضى وذويهم وتلمُّس حاجاتهم، والوُقُوف إلى جانبهم لتذليل جميع الصِّعاب التي قد تُواجههم.

القوقعة أو أمي وأبي

اكتشف أحدُ الآباء أنَّ ابنه مُصابٌ بضعف سمع شديد في كلا الأذنين، وليس بمقدور هذا الطفل أن يسمعَ حتى بأحدث السَّمَّاعات وأكثرها قوة؛ فكان هذا الخبرُ كالصاعقة، فكيف لهذا الطفل أن يعيشَ ويَتَعَلَّم؟ وكيف له أن يتكلَّم؟ وكيف؟ وكيف؟ أسئلة لا يوجد لها إجابة! إلا أنَّ إصراره وحرصه أرشده إلى بصيص أمل، نعم هذه الفاجعة خفَّتْ عندما علِمَ أن هنالكَ أملاً في أن يسمع هذا الطفل ويتكلم ويذهب إلى المدرسة برفقة إخوته، يداً بيد، بدلاً من مدارس الصم والبكم، وبإمكانه التواصُل بشكل طبيعي مع المجتمع، وذلك لو أُجْرِيَتْ له عملية زراعة القوقعة.

لم يكنْ لهذه الفرحة أن تكتملَ، فبعد البحث هنا وهناك اكتشف أن هذا الجهاز باهظ الثمن، وعمليته وتأهيله يَفوق كل ما لديه من إمكانات؛ فهو رَبٌّ لأسرة، ويعول والديه وإخوته بمرتبٍ يكاد يتلاشى قبل اكتمال البَدْرِ من كل شهر.

فبينما هذا الأبُ في هَمِّه وحزنه إذ قال له والداه كلماتٍ تدمي الصخر، كلمات لا تَصْدُر إلاَّ من الوالدين اللذين

يُقَدِّمان أثمن ما لديهما من أجل أبنائهما، لقد قالا له: "ابنُك أولى منا، فنحن سنين معدودة وسنرحل، وستبقى أنت وابنك، فلا تبخلْ عليه بسببنا"!

فيا سبحانك اللهم إذا كانتْ هذه رحمة الوالدين، فكيف برحمتك يا أرحم الراحمين؟!

كانت معادلةً صعبةً للغاية، فهل جهاز القوقعة والعملية والتأهيل وأن يسمع هذا الطفل أولى؟ أو أبي وأمي اللذان سهرَا الليالي وتعبَا في النهار مِن أجلي؟ هل هذه الأمانة التي وهبني اللّه إياها واسترعاني عليها أولى؟ أو مَن يجب أن أخفضَ لهما جناح الذُّلِّ من الرحمة وأقول: ربي ارْحَمْهُما كما رَبَّياني صغيراً.

هل أقتِّر على من حولي مِن أجل واحد؟

هل أطيع والدي وألْتَفِتُ لهذا الطفل الضعيف فأرحم ضعفه؟ أو الوالدان أولى بالرحمة؟

ثم من أين لي بهذا المبلغ الباهظ؟ هل أتسلف؟ ومِن مَن؟ هل أقترض من البنك وأبقى مديوناً طوال عمري؟ هل أبيع كل ما لديَّ؟ تساؤلات تجعل الحليمَ حَيْران!

قام هذا الأب يدعو ليلاً يَتَضَرَّع إلى عَلاَّم الغيوب أن يرحمَ حاله وحال والديه وطفله، وبينما هو يُصَلِّي تبادر إلى ذهنه البحث في الإنترنت عن مراكز زراعة القوقعة، فليس من المعقول ألاَّ يوجد في هذا البلد الطاهر مكان لهذا الخير.

تعـرَّف بعـد ذلـك علـى مستشـفى الملـك عبدالعزيـز الجامعـي في الرياض، الذي راسَـلَهُ من ليلتـه، فجاءه الردُّ خلال ساعات بالموعد، وتم إخباره أن هذا البرنامج الوطني هو أكبر برنامج في الشـرق الأوسط، ولديه أحدثَ الأجهزة والإمكانات من غرسٍ وعملية وتأهيل، وكلُّ هذا بالمجَّان!

لَم يكن الأبُ ليُصَدِّق ما سمع، فهل صحيح أنه ليس بحاجة لأن يسـتلفَ أو يقتـرضَ أو يقتِّر على أحد من أسـرته؟ هل صحيح أنه سـيبقى بارّاً بوالديه، وسوف يرحم هذا الطفل؟ كان هـذا كالحلـم الذي لـم يُصَدِّقه، ولكـن جامعة الملك سـعود أصبحـتْ هي القـدَر السـعيد الذي حقَّق سـعادة المئـات مـن مرضـى الإعاقـة السـمعية، فللـه درك أيتهـا الجامعة، فكم رسـمتِ من ابتسامة! وكم فرَّجْتِ من كُربة! وكـم حقَّقتِ من حلـم! وكم علَّمـتِ! وكم درَّبـتِ! وكم...! وكم ...! وكم يحق لنا جميعاً أن نفتخرَ ونتباهى بك.

الاطمئنان من الآذان

رُزِق الزوجـان بمولودٍ، ويا له من مولود؟ وكأيِّ والدين فهو لَـم يُخلـقْ مثله فـي نظرهما، فسـوف يملأ البيت سـروراً وفرحاً، وسـوف يُرَبِّيانه أفضل تربية ليكون أفضل إنسان، سـيُحَقِّقون له كل آماله، وسيحقق لهم كل ما يتطلعون إليه من بِرٍّ وحبٍّ، إنه أثمن ما لديهم في هذا الكون، طفل جميلٌ في كل شـيء؛ في نومه، في ابتسـامته، حتى في بكائه جميل.

ما لبث والداه بعد مرور سنة مِن عمر الطفل حتى اكْتَشَفَا صُعوبة التعامل معه، فهو لا يُعيرُهم أي اهتمام، ولا يُصْدِرُ أي كلمات، ولا يستجيب لأي شيءٍ، وكل يوم يَكبر فيه تَزْدادُ مُعاناتهم معه!

لم يجدْ والداه إجابةً شافية من أقربائهم تُفَسِّر هذا السلوك الغريب، فمنهم من قال: كلُّ الأطفال هكذا، ومنهم من قال: لقد كنتما أصعب منه في صِغَرِكما، ومنهم من قال: هو يحتاج لأخ أو أخت... إلخ!

لَم يبخلْ عليهم أقربائهم بكلِّ النصائح المطمئنة، ولكنَّ أصدقاءهم كان لهم رأيٌ آخر، فهذا بسبب الدلال المفرط لأول طفل، وهو جهلٌ بأفضل الطرق في تربية الطفل، وهي: العصا لمن عصى وأول الإذعان يلي عصر الآذان، بل إن جميع الأطفال أشقياء، خاصة الأولاد منهم، وبالأخص أولهم، والذي إن صلح صلح كلُّ مَنْ بَعْدَهُ.

جرَّب هذان الوالدان كل طريقة سمعوا بها في تغيير سلوك هذا الطفل، وبعد صبرٍ طويلٍ لم يستطعْ والداه تحمُّل هذا العناد، فعَرَضوه على العديد من الأطباء، ومنهم طبيب أذن أجرى له العديد من الفحوصات والاختبارات، واكتشف أن هذا الطفل لا يسمع، وبقَدْر ما كان هذان الوالدان حزينَيْنِ من هذا التشخيص بقَدْرِ ما كانا سعيدَيْنِ باكتشاف المشكلة التي لم تخطُرْ على بالهم ولا بال كلِّ من استشاروا.

(لا يسمع)! لَم نسمعْ بهذا التشخيص من قبلُ في طفل، ولا يوجد أحدٌ مِن أقاربنا مصاباً بضعف سمع، للّه الحمد

لَم يكن هذا توحداً ولا مرضاً نفسيّاً، ولا فرط دلالاً منا، ولا... ولا...

بـدأ هؤلاء الأبوان مشـواراً آخر، فعليهم أن يلبسـوا هذا الطفلَ سـماعة في كلا الأذنين لكي يسـمع، وباءت جميعُ المحاولات بالفشل؛ فالطفل يرفض لبس السماعة، وحتى عندما يلبسـها لا يستفيد شيئًا؛ فكم مرةً ضيَّعَها! وكم مرة كَسَرَها! وكم...! وكم...!

كانت حالتُه مع مضيِّ الوقت تزداد سـوءاً، وكل يوم يكبر فيـه تَـزْدادُ شَـقاوته وعنـاده، وأصبـح من الصعـب تركه لمـدة دقيقة واحـدة دون ملاحظة؛ فقد كَسَـر كل ما في المنـزل، وجرح نفسـه فـي كل مـكان، ولَم يَعُـدْ بمقدور والديه اصطحابه لزيـارة الأقرباء الذين لا يتحمَّلون ما يقوم بـه هـذا الطفل لمنازلهـم، كما لا يحبون زيـارة والديه في منزلهـم؛ خوفاً على أطفالهم من هذا الطفل المتوحش في نظرهم، وليس هذا فحسـبُ، بل لَم يسـتطعْ والداه اصطحابـه حتـى للسـوق ولا المنتزهات ولا حتى السـفر، فهو لا يترك شيئاً في مكانه، ولا يسلم منه شيءٌ، والكلُّ يشـكو منـه، وأصبح والـداه مسـجونان معه، ولَـم يَجِدَا طريقةً يسـتطيعان بهـا التواصُل معه، حتـى العقاب لَم يزدْهُ إلا عناداً وشقاوة!

وفي إحدى مراجعاتهم للمستشـفى طلبوا أي حل لهذه المشـكلة، إلا أن المختصيـن أخبروهم أن ضعف السـمع لـدى الطفل شـديدٌ جدّاً، ومـن النوع الصعب الـذي قد لا يسـتجيب إلا لزراعة القوقعـة، إلا أن والديه لَم يسـتطيعا

البقـاء مكتوفـي الأيدي وحالـة ابنهم تزداد سـوءاً، وهم مُسْـتَعِدُّون لتقبُّـل كل النتائج، وفي نظرهـم لن يكون حال ابنَهم أسوأ مِمَّا هو عليه؛ حيث إنه لَم يستجب حتى للعلاج السلوكي والأدوية.

وافقـتْ لجنـة زراعـة القوقعـة على إجـراء العمليـة لهذا الطفـل، ولم يـرضَ والداه بالانتظار فـي الموعد المجدول للعملية، فهُمْ يَوَدُّون أن تُجرى في أسرع وقت.

تَمَّ إجراء العملية للطفل، وكُلِّلَتْ بالنجاح، ولَم يكن والداه ليصدِّقَا مـا أصبح عليه حـال طفلِهم بعـد أن تَمَكَّن من السـماع، لقـد تحوَّل مـن طفل صَعـبٍ وعنيـدٍ إلى طفل هـادئٍ خَجولٍ طيبٍ؛ فكنـتُ أرى هذا الطفـلَ فِي عيادتي وخلال عشـر دقائـق يُقلب العيادة؛ فقطـنُ التعقيم على الأرض، وملعقة اللسان مع شفاط الأنف، ومنظار الأذن على الكرسـي، ولكن بعد زراعة القوقعة يختبئ مع والدته من الخجل؛ حتى لا تكاد تراه.

جـاء والـداه بعـد العمليـة بعـدة أشـهر، وسـألاني: هل تذكرنـا؟ أو تذكر ابننا؟ فاسـتحييتُ بالإجابـة بلا، إلا أنهم ذَكَّروني بابنهم، وهل لي أن أنسـاه، لكن لم أكنْ لأُصَدِّق كل ما جرى لهذا الطفل الذي كنت لا أرى في العيادة سواه قبل العملية.

أفصح والـدا هذا الطفل لي بالعديد مـن معاناتهم قبل إجـراء العملية، ولم يَبُوحَا بهـا إيماناً بقضاء اللّه وقدره، إلا أنهما أحبَّا أن يخبروني بما صنعتْ زراعة القوقعة من علاج لأسرة كاملة، وليس لطفلٍ واحدٍ، فيا سبحان اللّه! كم هي

هذه النِّعم التي نحملها تاجاً على رؤوسنا، ولكنَّا لا نراها.

كرسي ثم مركز

قام كرسي الأمير سلطان للإعاقة السمعية بنقلة طِبِّيَّة في مجال الإعاقة السمعية، فقبلَ ما يقارب السَّنتين سألني أحدُ الأصدقاء عن زراعة القوقة، وهل بمقدور إنسان العيش بقوقعة واحدة؟ وكيفية التبرُّع بها؟ وهل هي مثل الكلية تحتاج أدويةً للمناعة؟ وهل هذا الموضوع بحاجة إلى كرسي للأبحاث؟ ولماذا دعَّمه أميرُ الإنسانية سلطان الخير و... و ...، استرسلتُ في الاستماع، وفتحتُ المجال لبقية الأصدقاء للتساؤُل عن زراعة القوقعة؛ لكي أعرفَ مدى تقصيري في تعريف زملائي وأقربائي عن زراعة القوقعة، كنتُ مُنشغلاً بعلاج المرضى، وتدريس الطلبة، مع أن الاقرباء أولى بالمعروف.

أما الآن فلم يبقَ أحدٌ من الذين أعرفهم إلا وهو على دراية كاملة بتفاصيل التفاصيل عن الإعاقة السمعية وزراعة القوقعة والباهة، ولا يكاد يخلو مجلس أحضرُه لا تكون القوقعة طبقها الرئيسي والإجباري على الجميع، تناوله عن حب أو على مَضَض، ومن ثم يتم التحلية بالباهة (السماعة العظمية).

وجدتُ أن الغالبية من الناس متعطِّشة لمعرفة الشيء الكثير في المجال الطبي، حتى لو كانتْ بدهيةً، أو أحد أبجديات الطب، غير أننا نحن الأطباء قد حرمنا العديد منهم، مما جعلهم يتابعون المواقع في الإنترنت والقنوات

الفضائية؛ ليُشبِعوا غريزتهم المعرفية، وغالباً لا يَسْلَمون من المشعوذين والمنجمين وأنصاف المتعلمين، ومن يدس السُّمَّ في الطحين.

على مستوى العالَم تتربَّع الإعاقةُ السمعيةُ على عرش أكثر الإعاقات الحسية انتشاراً وأكثرها تأثيراً على المعاق والمجتمع اقتصاديّاً واجتماعيّاً وتعليميّاً ونفسّياً، ولعلي أذكر لكم معاناة أحد الأطفال الذي وُلِد أصم، ولكن رزقه اللّه أمّاً أصبحتْ مدرسةً لنا نحن الأطباء، نسترجع محاضراتها ونَسْمَع كلماتها، ونُطَبِّق واجباتها، وكما يُقال: أفضلُ معلم للطبيب هو المريض.

هذا الطفلُ وُلِد ولديه صممٌ في كلا الأذنين، لكن ذكاء أمه ألْهَمَها إلى مراجعة المختصين في شهوره الأولى، ولم تأبَهْ بنصائح المرجفين والمخذِّلين والغير مبالين والناصحين: أن الأطفال متفاوتين، ومنهم من يسمع بعد الخمس سنين، ولا يدرون أنهم قد حكموا على طفل بريءٍ بسجن انفراديٍّ مؤبد بالأشغال الشاقة؛ (زنزانة الصمم).

لَم يكن طريقُها مفروشاً بالورد والعنبر والكادي، ولم يكن أمامها أي خريطة تدلُّها من حيث تذهب، وإلى أين تصل، ولا حتى من حيث تبدأ هذه الرحلة! فهي ظلمات بعضها فوق بعض.

ذهبتْ إلى أحد المستشفيات المشهورة في مدينة الرياض، تَذْكُر أنه من أكبر المستشفيات الكبيرة، وليس مستشفى صغيراً، أو مستوصفاً، أو عيادةً، وهي في مدينة الرياض، ولم نقلْ: في مدينة أخرى، ولا قرية، ولا هجرة!

فقـط أخْبَرُوهـا أن ولدَهـا لديـه صمـم شـديد، ويجب أن يلبس سـماعة، لكن ما هو سـبب ذلك؟ ومـا هو العلاج؟ .... كانت الإجابة سـريعة مغلفة بقصدير الوجبات السـرية: "لا نعلم"، لكن عليها شـراء سماعات للطفل ذي الثمانية أشهر، ومن ثم المراجعة.

لكـن لماذا السـماعة، وهـو لا يسـمع؟ ولمـاذا المراجعة؟ وجبـة سـريعة أخـرى لا تسـمن ولا تغني من جهـل: "في الزيارة التالية نعلمكم".

لـم يكن هذا المخدِّر الموضعي كافياً لإزالة ألم وحرقة الأم على طفلها، لكن كان بصيص أمل، ولعل السـراب يكون ماء يوماً ما في هذا المستشفى.

بعـد المراجعـة تَم إخبارها بأن هذا الطفل لا يسـمع حتى بأقـوى السـماعات، وأنَّ عليهـا تشـجيعه علـى لبسـها سـاعات، فربما يسـمع، لـم تَجِـدْ إجابة لأسـئلتها الكثيرة سوى المواعيد الطويلة.

بحثـتْ فـي الشـبكة العنكبوتيـة عـن حـلٍّ؛ فهـي لَـم تستسـلمْ لليأس ولا للنصائـح، وأنَّ عليها الانتظار وعدم التسـرع والاندفاع، فالطفل إذا لَم يسـمع اليوم سيسمع غداً أو بعده.

وجـدتْ ضالَّتها فـي أحد المواقـع التي تتحـدث عن زراعة القوقعة، وشـيئاً فشيئاً عرَفت الكثير عنها، وذهبتْ لأحد المستشـفيات الخاصة التي أخبرتهـا أن العلاج لديها، ولا ينقصها سـوى مبلغٍ زهيد جدّاً جدّاً لا يتعدى الربع مليون!

وإنْ لم يكن لديها المبلغ كاملاً فلديهم برنامج تقسيط مع أحد البنوك، أو بإمكانها أخْذ خطاب بالتكلفة والطلب من التجار والأمراء والشيوخ أن يتَصَدَّقوا على هذا الطفل، كما أن الجرائد مُستعدة لعرض حالة طفلها، وأهل الخير كثير في هذا البلد الطيب!

بينما هي تنتظر وتفكّر كيف تجمع هذا المبلغ الباهظ، سمعتْ عن مركز الملك عبداللّه التخصصي للأذن في جامعة الملك سعود، وعن أكبر برنامج وطني في الشرق الأوسط لزراعة السماعات، فذهبت لمستشفى الملك عبدالعزيز الجامعي الذي أكَّد لها ما يُعاني منه ابنها من صمم في كلا الأذنين، وأنَّ العلاج موجودٌ وبالمجان، ليس هذا فقط، بل والتأهيل ولمدة أربع سنوات وبالمجَّان!

لَم يكن هذا حلماً ولا خيالاً، بل حقيقة للعيان، حقيقة إنسان ولهان خرَج من عالم النسيان، يقول الصادق المصدوق عليه أفضل الصلاة والسلام: ((مَن فرَّج عن مؤمنٍ كربةً فَرَّج اللّه عنه كُرْبَةً مِن كُرَب يوم القيامة)).

القوقعة والحلاق

كان الحَلاَّق إلى عهد قريب هو مَن يُمارس التطبيب، ويقوم بأصعب العمليات الجراحية في جميع أعضاء الجسم المختلفة، ولِما يحظَى به من الوجاهة في المجتمع أُطْلِق عليه لقب: السيد (Sir)، وإلى الآن يرفُض بعضُ الجراحين في بريطانيا لقب دكتور ولا يرضى إلا بلقب: السيد، سبحان اللّه؛ فـ"للأطباء فيما يعشقون عجائب"!

أمـا الحلاَّق لدينـا في السـعودية فأصبح مصففـاً وصابغاً للشـعر لجميع الأعمار، ومختصّاً في المسـاج، بالإضافة إلى كونـه قهوجيّاً ومرشـداً سـياحيّاً، ولكن مـا يصعُب على مخيلتـي تقبُّلـه أنَّ حَلاَّقاً أجنبيّاً – لا يُتقـن اللغة العربية – يَلْعَـبُ دوراً بارزاً فـي التثقيف الصحي! نعـم يعمل مثقفاً صحيّـا! فقـد أخبرنـي أحـدُ المرضـى بأنـه علم بأمـر زراعة القوقعـة من الحَلاَّق! وذلك حينما رأى ابنته تلبس سـماعة طبيـة، ولكن لا تسـتجيب للأصـوات، فأخبـره بوجود علاج لمثـل هذه الحالات يُعرف بزراعة القوقعة، وأنه يعرف طبيباً فـي تَخصص الأنف والأذن والحنجرة يتـردد عليه، وكان قد حدَّثه عن هذه التقنية من العلاج!

قـام هذا الحـلاَّق بإرشـاد والد الطفلـة إلى هـذا الطبيب الذي قام بإيصاله وابنته إلى مستشفى الملك عبدالعزيز الجامعـي، أكبـر صرح وطنـي لزراعة القوقعة في الشـرق الأوسـط، ولقـد كانـتْ حالتُها مـن أصعب الحـالات علاجاً، لشدة ضعف السـمع لديها، وقد اكتشف الفريقُ المُعالِجُ أن لديها تشـوُّهاً في عصب السـمع، وتعتبـر من الحالات النـادرة والصعبـة، وقد أُجْريـتْ لها عمليـة الزراعة بنجاح، وهي تتحسَّن مع التأهيل بشكل ملحوظ، وكأنها تعيش عمراً جديداً بتواصُلها مع من حولها بعد هذا الإنجاز.

ناشـدنا والد الطفلة بالقيام بـدوره المنوط به في تثقيف المجتمـع بعـد التجربـة التي عايشـها وابنته فـي مرحلة العـلاج بتقنيـة زراعـة القوقعة، والتـي تُوفَّـر بالمجَّان في بلادنا الغاليـة، فالجميعُ يعلم عن زراعة الكلى والكبد، بل وحتى زراعة الشـعر والجلد، ولكـن يندُر أن تجد من يعرف

ولـو نزراً يسـيراً عن زراعـة القوقعة، بل قـد يجهل الكثير هذا العُضو الفَعَّال، ويتسـاءل بتعجـب عن مكان وجوده ووظيفته، إنْ سمع به مِن قبيل المصادفة!

وكثيـراً ما نُواجـه النقد من المرضى عـن جهلهم كأفراد فـي المجتمع عن زراعة القوقعة وبقية السـماعات، وطرُق الكشـف المبكـر، والتدخـل السـريع فـي عـلاج الإعاقـة السـمعية، وفي المقابل ينتشر عند الكثير من الناس أثرٌ لا نعلم له أصلاً ولا فصلاً مفادهُ: "انتظر حتى سن الخامسة، وسوف يتكلم ابنك"، وهذه الشائعةُ تنتشر في مجتمعنا السعودي أسرع مِن انتشار النار في الهشيم، وكأنها أحد قوانين الكون التـي لا تتغيَّر أو تتبدَّل، وهي في الحقيقة تتعارض مع أبسط أبجديات الطب (الوقاية خيرٌ من العلاج)، وخصوصاً في حالات ضعف السـمع الشـديد "الوقر"؛ حيث يصعُب على الطب تقديم علاج فعَّال للمعاق سمعيّاً بعد سـن الخامسـة، وبمثْـل هذا الفهـم المغلـوط نكون قد حكمنا بمؤبَّد الصَّمَم والبكم على نفس بريئة، وسلبناها حقها المشـروع في حياة كريمة كباقيّ البشـر، لهذا "لو كان هذا الأثرُ رجلاً لقتلناه"!

لكـن العجيب الغريب في الأمـر أنَّ العديد من المُختَصِّين يرفُضـون تحمـل المسـؤولية، أو تقبُّـل اللـوم مِـن قِبَل المرضـى فـي قلـة التثقيف الصحـي، وسياسـته "أفضل طريقة للدفـاع هو الهجوم"، فيقوم بعتـاب الوالدين عن تقصيرهم، أو تأخرهم في طلب علاج لم يسـمعوا به من الأسـاس، لكنه في المقابل لا يسـأل نفسه: ماذا قدَّم هو

كشخص مختصٍّ لمثل هؤلاء المرضى؟ وبماذا سيجيب عندما يسأله ربُّ الجلال عن علمه ماذا عمل به؟!

وعلى النقيض من ذلك نُواجَه بالانتقاد الأكبر من الإخوة الأطباء عن كثرة التحدث عن زراعة القوقعة، وكثرة ما يُكتب عنها من قبل كرسي بحث الإعاقة السمعية "رشد"، ويسألوننا دائمًا: هل ضعف السمع يُمَثِّل المشكلة الصحية الوحيدة التي تواجِه المجتمع السعودي حتى تحظى بكلِّ هذا الاهتمام؟ وكأنهم لا يعلمون أن الصمم من أكثر الإعاقات البشرية انتشاراً، بل وأعظمها أثراً على المريض والمحيطين به، لكنها في نفس الوقت من أسهل الإعاقات وقايةً وعلاجاً وتوفيراً لاقتصاد الدولة، إن لم نقُلْ: إنها استثمار حقيقيٌّ للعلاج، كما أننا لن نخسرَ شيئاً من التثقيف، وهذا من الأدوار البارزة للجامعة تجاه المجتمعِ وأفراده، مع أنَّ كثيراً مما كُتب لَم يُنشرْ، وكثيراً مما يُعلم لا يُذكر، ونحن على استعداد أن نقفَ عن هذا التثقيف الصحي لإرضاء المنتقدين، بشَرط أن يتحمَّلوا وزْرَ هؤلاء المرضى وتقصيرنا أمامهم، وربما يكون هذا الكتابُ بما فيه من عِبَر مرضىَ زراعة القوقعة وقصصهم المختلفة في وصولهم إلى المستشفى شمعةً في طريق الخير، وليعذرنا العاذلون، ولْيُسامحنا المنصفون!

الأولاد فقعوا رأسي

كان لديَّ هاتفٌ قديمٌ أكل الدهر عليه وشرب، ومن باب: "قديمك نديمك لو الجديد أغناك" بقي هذا الهاتفُ المتهالك متربعاً على سطح مكتبي، وفي إحدى

المكالمات وفي منتصف الحديث انخفض صوت المتحدث، وكالعادة قُمت بهز السماعة عدة مرات، ولكن لم تستجبْ، بعد ذلك اعتذرتُ للمتحدث أن صوته أصبح بعيداً، فهل في الإمكان أن يرفعَ صوته، وعندما استجاب لطلبي تغيرتْ نبرةُ الصوت، وأصبح وكأنه يعاتبني! بالعامية: "ينافخ عليه!"

كانت بضعة ثوان وأنا أتجرع هذه الإهانات الصوتية، وليست لفظية، فالرجلُ كان يتحدث بكل لباقة، إلا أنه ما لبث أن تنحنح، ومن ثم كحكح، وأخيراً فَقَد صوتَهُ، واعتذر عن مواصلة الحديث في الهاتف، وبقدر ما كنتُ سعيداً بانقضاء المكالمة لأحافظ على آخر رمق من كرامتي التي أحسستُ بأنها أُهْدِرَتْ بهذا الصوت الحاد، والأشبه بالعتاب أو التوبيخ، بقدر ما كنت حزيناً على صاحبي لفقده صوته، وحزيناً على هذا الهاتف الذي أصبح في عداد الذكريات بعد انتقاله إلى دولاب المتحف المنزلي!

لكن في الحقيقة تعلمتُ درساً مفيداً جدّاً، فالمرضى الذين يُعانون من ضعف السمع –ومثال ذلك كبار السن – نُبادر نحن برفع أصواتنا لعلنا نُساعدهم على فهم ما نقول، ولكن في الحقيقة نبرة الصوت تتغير، وكأننا نعاتبهم أو نُوبخهم، لا هم ولا نحن نرضى بمثل هذا، والعياذ باللّه! مما يزيد الطين بلة، وهذا ناتج عن ظاهرةٍ غريبةٍ تُعرف بتجمُّع الصوت، وهذه الظاهرة ناتجة عن عدمِ مقدرة الأذن على سماع الأصوات المنخفضة، وفلترة الأصوات المرتفعة؛ حيث يجتمع الصوتُ مع بعضه البعض، فيسمع المريض بحدة أعلى بكثير مما قيل، ومثال ذلك وهو واضح جدّاً

عنـد كبار السـن، فهم لا يسـمعون، وكثيراً مـا يرددون: "أولادكـم صدعوني بصياحهم"! فكيف هم لا يسـمعون وفي نفس الوقت يصدع رأسـهم مـن الصياح؟! هذا كما قلنا بسـبب تجمُّع الصوت، وعـدم مقدرة الأذن على فلْتَرَة الأصوات.

كما أنَّ ضَعْفَ السـمع غالباً مـا يكون تدريجيّاً، وفي بعض التـرددات فقـط، فلا يظهـر علـى المريض بشـكل جليٍّ ضعـف السـمع، مما يشـكك الآخرين في تقبـل مثل هذا المـرض، بـل عنـد المرضى أنفسـهم، وفي هـذه الحالات تشـتَبِه على المريض بعض الكلمات؛ مثـل: نحلة ونخلة، وسيارة وطيارة، مما يجعله أضحوكة المجالس، وينزع منه الثقة بالنفس، والقدرة على أن يُجاري الآخرين في الحديث.

أضف إلى ذلك أنَّ مريض ضعف السـمع لا يستطيع سماع الأَصـوات الهادئة، مما يجعله يشـكُّ فيمن يتحدث بصوت منخفض، وكأن لديه سرّاً ولا يَوَدُّ أن يسمعه هذا المريض، ممـا يجعلـه يرتاب ويشـك ويخاف مـن هؤلاء الأشـخاص، وهذا مِصْداقُ حديث سـفيان عن المصطفى عليه الصلاة والسلام: ((لا يتناجى اثنان دون الثالث؛ فإنَّ ذلك يحزنه)).

كلُّ مـا سـبق ذِكْـرُه يدْفَـع المريـض بضَعْف السـمع إلى الابتِعـاد عـن المجتمـع، وتجنُّـب إقامة علاقـات جديدة مع أناسٍ قد لا يفهمونهم، وبهذا يصغر مجتمعهم تدريجيّاً، ويدخُلـون فـي دوامـة العزلـة والشـك والخـوف، وعندما يحضُـرون مُكْرَهين إلى هـذه الاجتماعات فإنَّهم يلتزمون الصمـت؛ لكي لا يقعـوا في الحرَج، فمـن الناس من يقول

عنهم: إنسان هادئ رزين، لا يحب اللغو في المجالس، حكيم ومحترم بسبب قلة كلامه، وفي المقابل نجد هنالك من يقول عنهم: متكبرون متعالون صلفون، لا يُقَدِّرون غيرهم! . . . . مجتمع لا يرحم!

ليس هذا فحسبُ، فمعروف طبيّاً أن ضَعْفَ السمع غالباً ما يُصاحبُهُ طنينٌ متواصلٌ في الأذن، ويَظْهَرُ بشكلٍ واضحٍ في الأوقات والأماكن الهادية؛ مثال ذلك: قبل النوم، فبينما يَسْعَدُ الجميعُ بنوم هادئ مريح، ينام ضعيفُ السمع على صَخَبِ الطنين في أُذُنه، مما يُسَبِّب له الأرَقَ والتَّعَبَ النفسيَّ في مجرد التفكير في النوم! لهذا قد يحتاج بعضُ هؤلاء المرضى إلى أخْذِ الأدوية المهدئة والمنومة؛ ليَتَمَكَّنوا من التغلُّب على هذا الطنين.

ويمكننا تلخيص معاناة ضعيف السمع في الآتي:

المريضُ لا يسمع جيداً، ويَسمعُ طنيناً في الأذن، وعندما يَسْمَعُ يكون الصوتُ بِنَبْرَة استعلاءٍ وعتابٍ، بالإضافة لتجمُّع الصوت الذي يَظْهَرُ بشدة عاليةٍ تُضاعفُ من الشعورِ بالاستنقاص، ليس هذا فحسْبُ، بل الأصوات العالية قد تُسَبِّب لبعضِ مرضى ضعف السمع الدُّوخة والصداع وضيقة الصدر، كلّ هذا نُلاحظه على كبار السن، فهم لا يسمعون وفي المقابل لا يتحمَّلون بعضَ الأصوات المرتفعة؛ مثل: ضحك الأطفال الذي نستمتع به.

هذا بكل بساطة ما يعاني منه ضعيف السمع، مما يحدو بهم إلى تجنُّب التحدُّث مع الناس، والذهاب إلى الأماكن ذات الضجيج؛ مثل: الأعراس، والمناسبات، ويلجؤون إلى

العُزلة، وبهذا فهم يحافظون على كرامتِهم.

وختاماً هذا سؤال بمليون، والخيارُ مفتوحٌ للاتصال بصديق، ومشاركة الجمهور، بشرط عدم حذف الخيار الوحيد للإجابة بكلمة لا:

هل يوجد مرضٌ عُضويٌّ له تَبِعاتٌ نفسيةٌ على المريض أشد مِنْ ضَعْفِ السمع؟

(دعوة لك يا سلطان) حلمٌ آخرُ يَتَحَقَّق!

رجل حليمٌ مِن أرض الأحرار والأبطال: فِلَسْطين.

كان يوماً مِن الأيام يَحْلُم أن يسمعَ كلمة: بابا من طفلته الصغيرة الجميلة، ولكن مع تقدُّم الوقت لَم يكن هنالك صوتٌ سوى البكاء لهذه الطفلة، ولَم تكنْ تستجيب لصوت ولا تتأثَّر بشيءٍ مِنْ حولها، وإذا به يكتشف أن صمماً أصاب أذنيها، فهي لا تسمع شيئاً.

أمام إعاقتها السمعيَّة الشديدة وعدم استفادتها من أقوى السماعات، أظلمتْ عليه الأرض والشمس في كَبِد السماء، سَمِع بزراعة القوقعة، ولكن كيف لإنسانٍ مثله أنْ يحلمَ بهذا العلاج في بلدٍ أنْهَكَهُ الاحتلالُ ووأد أحلامه؟!، فهل لهذه الطفلة مِنْ معتصم يسمع دعوة والدها ويمسح دمعة أمتها؟!

غاب هذا الصوت عن الجميع، لكن لم يكنْ ليغيب عن سلطان الخير، نعم سمعه، وأمر بتحقيق هذا الحلم، وقد تحقق في وقتٍ قياسيٍّ، أيام معدودة ووصلتْ تذاكر

وتأشيرة الدخول للمملكة، وساعات وتجرى العملية، دقائق ويركب الجهاز وأجزاء من الثانية وإذا كلمة "اللّه" تُشْرق بابتسامة على خد الطفلة، وصدى الابتسامة دمعة من عين والدها، مَكرمة حانية من أمير حان، تغمده اللّه برحمته، جعل من الحلم حقيقة، ومن الهَمِّ فرَحاً، ومن الإعاقة ماضياً ولى للعدم!

راوند حريزات من الخليل في ربيعها الثاني تحمل الآن في رأسها غرسة من مملكة الإنسانية بعدما حمل والدها الهم والأسى لحال طفلة يجهل مستقبلها في ماضي الأيام، هو اليوم والدٌ يحمل من معاني الشكر الكثير والكثير.

على مشارف حلم تحقق ظهر حلم آخر برد الجميل وجزاء الإحسان، حلم بدعوة إلى السماء في جمع الحجيج ويوم عرفة لمن يسمع ما لم يسمع غيره! لعله بذلك يُخَفِّف شيئاً من هذا الحمل على كاهله في رد الجميل، ولكن أتراه يتحقق أيضًا؟!

نعم ولا ريب، فدعوة إلى السماء حلم تَبَنَّاه أمير الحكمة (نايف) ليكون واقعاً من أحلام تتحقق تبعاً في مملكة الإنسانية!

كان بالنفس حلم بالعلاج ثم حلم بالدعاء، لم يبقَ حلم يا ذا المنة إلا تحقق!

وصارتْ أحلام الأمس حقيقةً في أرض العطاء من رموز الوفاء!

فحفظ اللّه لنا دولتنا والقائمين عليها، فقد زرعوا في قلوبِنا معنى الأُخُوَّة الإسلامية، فأصبحنا كالجسد الواحد، بقدر ما حزنا لحزن إخوتنا في فِلَسْطين جاء اليوم الذي نفرح لفرحهم، ونمد لهم يد الخير والعطاء، راجين رضاء خالقنا.

غنت جروحي

أرسل لي أحدُهم أبياتاً أبكتني وأبكت والدتي، لَم أكنْ أظن أن والداً يكون بهذه الرأفة بابنته، كثيرٌ هم الذين لا يسمعون، فهل لكل طفل لا يسمع والد مثل هذا؟! لن أطيل عليكم في المقدمة، فالكلماتُ وما يصاحبها من دموع تكفي في شرح هذه المعاناة!

غنتْ جروحي على دانه ودان
واختلى صمت بلحظات الأنين

آه لو تدرين عني يا رزان
يوم أنادي لك ولا أنتِ تسمعين

كن قلبي خيلاً وإحساسي عنان
كيف أعبر لك وكيف أقدر ووين

الصمم يملي تضاريس الكيان
وأشعر بحزنك وأنا حزني دفين

كلما سولفت وأشر بالبنان
أفتهم غيرك وأشوفك تجهلين

يحترق قلبي وأقوم من المكان
والبشر حولي ولا هم عارفين

تنزف جروحي على مر الزمان
كلما أشرتِ ولا أدرى وش تبين

يا بعدهم كلما زاد الحنان
يا بعد بابا ولحظات الحنين

ما لي إلا اللّه ونعم المستعان
ملجئي وإن ضقتُ من حر الونيين

اللّه الشافي ومن يبغي يعان
يلتجئ للّه سبحان المعين

أسأله ربي وبضمنها ضمان
القريب إلى يجيب السائلين

أن في لحظه أغمض ها العيان
ثم أفتحهن وأشوفك تسمعين

لم أكن لأدع هذه الفرصة الثمينة، فطلبتُ من والد الطفلة أن يتغـزل بالقوقعـة إذا سـمعت ابنتـه لكـي أرضـي بهـا والدتي العزيزة، فدموعُها كانتْ غاليةً عليَّ، وافق دون تردُّد وتعهده لي ألا يشكرني بأي شيء، فلن أقبل أن أُشْكَر على واجبٍ، فكان لي نصف ما طلبت في هذه القصيدة:

غنت الفرحة وزان العيد زان
واهتني بالي وفارقت الونيين

احمد اللّه بعد شافا لي رزان
احمده واشكره رب العالمين

يوم ناديت اسمها والعلم بان

ردتْ بصوتٍ فقدتُه من سنين

صار قلبي مثل عود الخيزران
يتمايل من يسار ومن يمين

كني اللي فاز يوم الامتحان
يوم شفتك تسمعين وتنطقين

العبي يا بنت في أمن وأمان
في ذرى اللّه ثم في جنب متين

الفضل للّه لا كاين وكان
ثم لك يا صاحب القلب الفطين

يا حجر ربي يبلغك الجنان
يا طبيب الخير تسلم هاليدين

يا مدير الجامعة كل امتنان
ياصلك وانته على الحصن الحصين

وهنا القصيدتان بإخراج مميز في اليوتيوب بعنوان: (قصة مريضة زراعة قوقعة بقصيدة شعرية)

https://www.youtube.com/watch?v=xrUgGJP9t1w

أقول لهذا الأب ولكل أب: إنَّ اللّه أرحم بنا من والدينا وأبنائنا، وكل من في الأرض جميعاً، بل من أنفسنا بأنفسنا، نسأله الرحمة بنا جميعاً في الدنيا ولآخرة.

قراءة الشفاه نعمة أم نقمة؟!!

جاءتْ إلى عيادتي امرأة مع أختيها ووالدتها وأخيها، ولضيق العيادة لم يتمكن بقية العائلة من الدخول، عندما سألتها: ماذا تعانين؟ لَم تردَّ على السؤال!!

بعدها سألتُ والدتها فقالت: "اسألها بتقول لك!".

عيادة مزدحمة وسؤال دون إجابة، و"اسألها بتقولك"!... الموضوع فيه شيء.

أعدتُ عليها السؤال مرة أخرى، وقلت لها: كيف أستطيع مساعدتك؟

قالتْ: ما أسمع.

أدركتُ أنها لا تعي مقدار المشكلة، وأن هنالك مشاكل كبيرة استدعتْ هذا الاستنفار الكبير لجميع قطاعات العائلة.

قلت لها: هذا شيء بسيط جدّاً، والحمدُ للّه الآن توفرت الكثير من الحلول لهذه المشكلة، وأكبر حل لهذه المشكلة هو أن يعترفَ المريض بمرضه، فما دُمت تعترفين بهذه المشكلة، فإني أرى أن نصف المشكلة قد تَمَّ حلُّه؛ لأن الكثير من مرضى ضعف السمع لا يؤمنوا بأن لديهم ضعفَ سمع، ومن الصعب إقناعهم أن هنالك مشكلةً، وغالباً ما يلقون باللوم على الآخرين.

كنتُ أتحدث بإسهاب في هذا المجال خشيةَ أن تكون تتحدث بلسان أقاربها، ولا تؤمن بهذه المشكلة، أو أنها

تخجل من هذه الإعاقة، وتخشى من لبس السماعات ونظرة المجتمع واستنقاصهم في نظرها لمرتدي السماعة الطبية.

قلتُ لها: منذ متى وأنت تُعانين من هذه المشكلة؟ قالت: "مدري".

قلتُ: منذ متى تأثرتِ بضعف السمع، أو تأثر من حولك بضعف السمع؟ قالت: "مدري".

قلتُ: هل سبب لك ضعف السمع مشكلة؟ قالت: لا.

عندها ردتْ أمها: "وأبو زوجك"؟

قالتْ: "هو اللي ما يسمع ويدور للمشاكل".

بعد نقاشٍ طويلٍ، وتخطيط السمع، وجدتُ أنها تُعاني من ضعفٍ السمع العصبي المتوسط في كلا الأذنين، وعندما أخبرتها قالتْ: "يعني سماعة؟!".

فقلتُ لها: لا أحد يُجبرك على لبس السماعة، ومثلها مثل النظارة يلبسها من يريد وعند الحاجة، وبمقدورك العيش بدون سماعة، لكن دعيني أشرح لك شيئاً لا تعرفينه، جميعُ الذين يفقدون إحدى الحواس يقومون بالاستعانة بحواس أخرى، وتتطور بشكل لا شعوري حتى تصبح مَلَكَة قد يجهلها الكثير من الناس، أو حتى المريض نفسه.

فقد سمعنا عن أناسٍ لا يرون، ويستطيعون المشي في الظلام، أفضل من الذين يكون قياس نظرهم: ستة على ستة، كذلك من يفقد السمع يستطيع أن ينمي حاسَّة

البصر لديه حتى يتمكَّنَ من معرفة ما قيل بحركات جسم المتحدث ومنها الشفاه، وهذا ما نطلق عليه: "قراءة الشفاه"، لكن هذه النعمة قد تنقلب إلى نقمةٍ إذا لم يحسن المريض التعامل معها؛ حيث إنه يبذل الجهدَ الكبير في التركيز على الشفاه، وفي نفس الوقت لا يعلم ما يقال له إن حَدَّثه أحدٌ مِن خلفه.

فلو فرضنا أنك دخلتِ المجلس على والد زوجك، وقال لك بعد التحية: "وين رايحين؟" فرددتِ: عند والدي، وقال لك "وش أخباره؟"، قلتِ: "بخيرٍ ويسلم عليك....."، طوال هذا الحوار وأنت تقرئينَ شفاهَه، وتردِّين عليه!

ولكن لنقل: إنك استدرت للخروج، وقال لك: "إذا جيتو طالعين قولوا لي أرافقكم، ودي أسلم على أبوك"! أنتِ لم تسمعيه، ولم تعرفي ماذا قال؛ لأنك ببساطة لم تتمكَّني من قراءة شفاهه، ولم تردي عليه، ولم تلبي رغبته، ولنقل: إن هذه الحادثة تكررتْ عشرات المرات بطلبات مختلفة من عمك.... ماذا ستكون ردة فعله وأنت لا تلبين طلباته؟ مع أنك في نظره تسمعين جيدًا؟ وقتها سيقول: "هذي تسمع اللي تبغي، واللي ما تبغي تسمعه تطلعه مع الأذن الثانية"!

وهذا ما يقال لكل الذين يقرؤون الشفاه، لكنِ إذا رجعتِ اليوم لعمك، قولي له: إنك تقرئين الشفاه ليعرفَ ما حصلَ معك ويَعْذِرَك.

جاءتني بعد فترةٍ مع زوجها تريد سماعة، فقلتُ لزوجها: كيف والدك؟ قال: (مبسوط، وقال لجيراننا: إنه يقرأ الشفاه

أيضاً عشـان لا أحد يسـلم عليـه من ورائه، ولا يـرد فيقال عنه: مُتَكَبِّر)!

قلـتُ: دعنـي أقول لك شـيئاً عن السـماعة، وباسـتطراد بعض الشـيء لأني إن سمحتَ لي سأكتب مقالاً عن قصة زوجتـك؛ لأن هـذه المشـكلة بالـذات تتـردَّد علـيَّ كثيراً، وهنالـك الكثيـر من المرضـى الذين لا يعرفـون عن هذه الملكة شـيئاً، فيقعون في العديد من المشاكل والحرج، فقال: توكَّل على اللّه.

قلتُ له: السماعات أشكالٌ وأنواعٌ مثل العدسات والنظارات، العدسـات صغيـرة وملونـه، ولا أحد يـدري عنهـا، لكنها غالباً أغلى من النظارات، ومشـاكلها أكثر، ولا تَصْلُح لكل المرضـى، لكن النظـارات أقوى وأرخص، ومشـاكلها أقل، لكن عيبها أنها واضحة، وكان يقال لمن يلبسـها سابقًا: "أبو أربع"، لهذا كان العديدُ من المرضى يفضل العمى على لبـس النظارة، أما الآن فأصبحت النظارةُ دليلاً على اللياقة والرفاهيـة، وتقبَّلهـا المجتمـعُ عندمـا تقبَّلهـا المريض، وأصبحتْ هنالك نظارات شمسـية وقمريـة ونجمية (هذه للدعابة فقط!)!

كذلك السماعات منها المخفي تماماً داخل قناة الأذن، لكن اختفاؤها مثل العدسـات له ضريبته، فهي أغلى وأضعف تكبيـراً للصوت، لهذا لا تصلح لكل المرضى، ومشـاكلها التقنيـة أكثـر، ومضاعفاتها علـى القناة السـمعية أكبر، لكنها بـكل المقاييس أفضل من عدمهـا، ولكن أفضل منها سماعة العروة والتي تُحمل خلف الأذن؛ فهي أرخصُ

سـعراً وأقوى في قدرتها على تكبير الصوت، وأقل صيانة وأكثر راحة للأذن، لكن عيبها أنها ملاحظة مثل النظارات، لهـذا يُحْجِـم عنها الكثير، ولكن سـيتقبلها المجتمع إذا تقبلها المريض...، وأصبحت حاليّاً مثل النظارات شمسـية وقمرية، قصدي سماعات بلوتوث وتعليقة!

لكن أُحَذِّرك؛ فبعد أن تلبس زوجتك السـماعات قد تفقد ملكة قراءة الشـفاه، ولا تسـتطيع معرفة ما تقول لها إذا نزعت السـماعة، فقـال مازحًا: (بأشـتري لي ولها سـماعة العروة وأدبسـها بأذاننـا، وننام بها ونصير نسـمع أحلام بعـض، فقلتُ له: هـل أكتبها فـي المقال؟ قـال اكتبها، بتخوفني؟!)

أودُّ أن أوضـحَ أن قـراءة الشـفاه مـن الملكات التـي يُـدَرَّب عليهـا فاقـدو السـمع الشـديد، لتكون معينـاً لهم في التواصـل مـع المجتمع، كمـا أن هنالك العديـد من برامج الحاسوب التي تُدَرِّب على هذه الملكة، أو تستخدم قراءة الشفاه في التعرف على الأصوات، ولها استخدامات تقنية وأمنية كثيرة للتعرف على الصوت والأشخاص، ومَن يدري فقد نسمع قريباً عن بصمة الشفاه!

وختامـاً أقترح عدم تداول عبارة (معينات سـمعية)؛ حيث إنهـا ترجمـةٌ حرفيـة لـ (Hearing aids)، ولا أجدهـا بـأي حـال أفضل من كلمة: سـماعة، ناهيك أنهـا كلمة واحدة وواضحـة، كذلك تسـمية سـماعة أم مسـكة أو سـماعة عفطة، هي تسميات غير محببة، وسماعة خلف الأذن هي ترجمـةٌ حرفيـةٌ لـ (Behind The Ear)، أما سـماعة العروة

فهي كلمة جميلة وفصحى، وتدل على المسكة الجيدة لهذه السماعة في الأذن، والمسكة الجيدة لفنجان الشاي يقال لها: "عروة الفنجان"، ولا ننسى العروة الوثقى قال تعالى: {فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: ٢٥٦]، وقال تعالى: {وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} [لقمان: ٢٢].

و"عُرْوَةُ الشجَر": ما لا يَسْقُطُ وَرَقُهُ في الشِّتَاء، وجمعُها عُرَى، فيقال: "عُرَى الصداقة": أي روابطها وما يُسْتَمْسَكُ به.

القوقعة القاتلة

اتصلتْ مُنَسِّقة زراعة القوقعة على المرضى الذين أُجْرِيَتْ لهم زراعة قوقعة، وإذا بالأب يخبرها بأن ابنته قد تُوُفِّيَتْ، وهو يود أن يقابلني!

لَم تعلم من كثرة الاتصالات اسم الأب، فجاءتني بالخبر كالصاعقة، فهل بحقٍّ ماتتْ؟ وهل بحق أُجْرِيَتْ لها زراعة قوقعة؟ وهل كانت الزراعةُ هي السبب؟ ولماذا يودُّ والدُها مقابلتي؟ وهل يودُّ أن يُخبرني عن تأسُّفه لإجراء العملية؟

كطبيب استرجعتُ شريط المضاعفات لعملية زراعة القوقعة، ولَم أجدْ سبباً مقنعاً لهذه الوفاة، فلم يعانِ أحدٌ من مرضانا من مضاعفات كبيرة كما نسمع من المراكز الأخرى، وذلك بفضل اللّه أولاً وأخيراً.

لم تستطع السكرتيرة تذكر الاسم، ولا تذكر الرقم، وبقيتُ في دوامةٍ من الحيرة والشكِّ، بل والخوف، ولَم نستطعْ إعادة الاتصال على كل المرضى، وحتى لو اتصلنا فكيف بنا نسأل عن حالة وفاة؟!

في لقاء المرضى تقدَّم إليَّ أحد المدعوين، وقال لي: هل تتذكر ابنتي التي أجريتَ لها زراعة القوقعة؟ لقد تُوفيتْ، وهذه أختها الصغرى، وأرغب في إجراء عملية زراعة القوقعة لها، قلت له: بكل تأكيد، لكن أخبرني كيف تُوُفِّيَت ابنتك؟

فقال: حضرتْ أختي إلى منزلي، وأقمتُ لها عشاء، وعند رؤيتها لابنتي بعد زراعة القوقعة أَحَبَّتْ أن تهديها شيئاً تحبه هذه الطفلة، فقالت الطفلة رحمها الله: أودُّ أن آكل "هامبرجر"، فقامتْ أختي وطلبتْ لها الهامبرجر الذي كنتُ مانعاً جميع من في البيت من الأكل منه، إلا أن أختي تعلم معزتها عندي، ولم تكن لتكسرَ خاطر هذه الطفلة وقد تعلقتْ بطلب شيء من عمتها، لَم تتمالك الطفلة الفرحة عندما علمتْ بأن الهدية قادمة فخرجتْ تنتظرها، وعندما رأتها من الجهة المقابلة للشارع، سارعتْ بالقدوم إليها، ولم تنتبه لقدوم سيارة مسرعة اصطدمت بها، ومِن ثَمَّ فارقت الحياة.

حزنتُ لهذه الطفلة ولهذه العائلة ولهذه العمة أيما حزنٍ، وكانتْ تُحاصرني أفكار بأنَّ هذه الزراعة هي التي قَتَلَتْهَا! فلو لم أزرعْها لَمَا حدث كل هذا، لكن إيمان والدها بقضاء الله وقدَرِه ورغبته في زراعة القوقعة لأختها الصغيرة كان

البلسمَ الشافي من كل هذه الوساوس.

قابلتُ والدها مرة أخرى، وسألتُه عن عذر صاحب المركبة، فقال: صدِّقْني، رضيتُ بقضاء اللّه وقدَرِه، ولم أبحثْ عن صاحب السيارة، والحمدُ للّه على كل حال.

أحِبَّتي هذه بلدي، وهذا شعبُها الكريمُ، يُسَطِّر للتاريخ أروع الدروس في الإيمان بقضاء اللّه وقدره، وفي الاحتساب.

الأحوال والجوال

اتصل أحدُ المرضى على الجوال لكي يطلبَ مني التحدث مع ابن عمه الذي يعاني من بحة في الصوت منذ عدة أشهر، وكيف أنه فَقَد الثقة بكل الأطباء، فأخبرتُه أني أتمنى أن أكونَ من هؤلاء الأطباء ويفقد الثقة بي، فلستُ أهلاً لعلاج بحة الصوت!

يطلب بعض المرضى من الطبيب رقم جواله، وقد كنتُ في السابق لا أتردَّد عن هذا، وخاصة مرضى زراعة القوقعة، بل كنتُ أبادر بإعطاء المريض رقم الجوال، ولكن بعد أن تجاوز مرضى الزراعة الألف أصبح من المستحيل القيام بهذا، فلم تعد ذاكرة الجوال تستوعب كل هذه الأرقام، ناهيك عن ذاكرة الطبيب، ومن باب: "المساواة في الظلم عدلٌ"، توقَّفْتُ عن التواصل بالجوال مع المريض؛ حيث إنَّ هذا يُعَدُّ تمييزاً للمريض عن غيره، كما أنه من المستحيل الحكم غيابيّاً على شكوى المريض، ويجب أن تُؤْخَذَ كل شكوى للمريض بكل جدية ومسؤولية، فإن كانتْ طارئة فطوارئُ المستشفى مشرعة الأبواب، وإن لم تكنْ طارئة

فمنسق البرنامج موجود طوال أوقات العمل لإيصال شكوى المريض، دون أن يطغى هذا على تفكير الطبيب لمرضى منومين، أو في العمليات، وهم في أَمَسّ الحاجة لكل تركيز.

ومن المؤسف أن بعض المرضى يستغل طيبة الطبيب لاستشارته في أمور خارج تخصصه، أو للتوسط لأحد أقاربه، بل وصل الحالُ ببعض المرضى أن يرسلَ الرسائل في برنامج الواتساب بشكل يومي بقصص وفكاهات ونتائج ناديه المفضل وقصيدة عصماء في قبيلته!

هذا الطبيبُ هو ابن وأب وأخ وصديق وجار، بل قد يكون جدّاً، ولديه من هموم الحياة والالتزامات خارج الدوام ما تَفُوق غيره، وليس بيده عصى موسى، ومن المستحيل أن يكون مناوباً يوميّاً على مدار الساعة، لهذا يكون كل طبيب ممنوناً لكل مريض يؤمن أن هذا الطبيب موظف يقوم بواجبه أثناء الدوام طبقاً للوائحَ وأنظمة تكفل لكل مريضٍ حقَّه بقنوات رسمية، لا يسمح أن يتَجاوزها أحد لتحفـظ حق العدل والمساواة بين المرضى، وليس من هذه القنوات رقم جوال الطبيب.

تحدَّثتُ مع أحد الأطباء الأجانب عن تعاملهم مع المريض الذي يتصل على الجوال، فأخبرني أنَّ هذا لا يوجد في مجتمعهم، ومن المستحيل أن يقومَ به أحدٌ، فعلاقة الطبيب مع المريض لا تخرج من باب العيادة، وشرف المهنة يستوجب الخصوصية التامة للمريض وللطبيب.

طلبتْ مني زوجتي أن لا أعطي مريضاً رقم الجوال، وقد

وعدتُها بذلك لكي يكون وقتي خارج الدوام لأسـرتي. بل قام ابني باسـتخراج شريحة باسـمه، وكأنَّ العائلة برمتها مُسـتاءة مـن كثـرة الاتصالات وعلـى وشـك حرماني من حمـل الجوال! لكن كل هذا لم يحدَّ من الاتصالات من قِبَل العديد من المرضى وغير المرضى، فقد أصبح من السهل إيجاد رقم جوال أي إنسان من البرامج الحديثة في الجوالات الذكيَّة.

الهدية لا!

بعد أن سَـمِعَ المريضُ وتَماثَل للشفاء أحضر هديةً ثمينةً للغايـة، ولكـن بقدر ما شـاركنا المريض فرحته بالسـمع، بقدر ما شاركناه أحزانه بعدم قبول الهدية، فكيف بهدية باهظـة التكلفـة أن تُـرَدَّ؟ وكيـف بمريض بهـذه المكانةً الاجتماعيـة أن يـرد؟ وكيف لجميع المبـررات من جهته أن تردّ؟

يحصُل مريضُ زراعـة القوقعة على معاملة خاصة من باب توفر العلاج لبقية الأمراض في جميع المستشفيات، وعدم توفر هذه الخدمات في مستشـفيات أخرى تُضاهي مركز الملـك عبدالله، ناهيك عمَّا يترتب على تأخر علاج المريض من تبعات كبيرة، ولا أكون مبالغاً لو قلت: إنَّ مرضى زراعة القوقعـة يُعامَلـون بخصوصيـة تُضاهـي مرضـى الأورام شـفاهم الله جميعـاً، بل إن مريضـاً تَرَدَّد في إجـراء زراعة القوقعة بسبب أنه رأى تسارع الإجراءات وبساطتها بالقدر الذي لا يتماشى مع كبر العملية في نظره، وما تعود عليه، فقد كان مسـؤولاً كبيراً في إحدى المستشـفيات، مع أنه

لـم يحصلْ على أي معاملة مختلفة عن بقية مرضى زراعة القوقعة.

هـذا التميُّـز فـي المعامَلة يُشْـعِرُ بعض المرضـى برغبة تقديـم شـيءٍ للطبيـب، وهـذا شـعورٌ إنسـانيٌّ جميلٌ، فيقـدم للطبيب هديةً تعبيـراً عن حب وتقديـر وعرفان، كما أن بعض الأطباء يتطلع لشـيء من التقدير والعرفان بالفضـل على ما قام به، وإن كان ذلـك من باب التأكد أنه لم يقصرْ مع المريض في شـيء أكثر منه تعطشـاً لمثل هذه الهدايا.

عندما يتذكر الطبيبُ أن ما يقوم به هو واجب، فإنه لا يرى أي أحقية له في قبول أي هدية، كما أنَّ مَن يُرَدِّد هذه الآية لا يود أي شكر؛ قال تعالى: {لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا} [الإنسـان: ٩]، بل إن هذه الآيات أكثر ردعاً لكل نفس تواقة للشـكر؛ قال تعالـى: {لَا تَحْسَـبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُـونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّـونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَـبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [آل عمران: ١٨٨].

لهذا يحـرِص القائمون على زراعـة القوقعة على رفض أي هدية، مهما كانتْ. لهذا لا تبخلْ أخي المريض على أعضاء اللجنـة بالدعاء، فهو أثمـنُ من كل الهدايا، وتَوَسَّـلْ إلى المولى العلي القديـر أن يَهْدِيَهم الفردوس الأعلى، فهو أثمـن هديـة، بالمقابل لا تحـزن إذا لم يقبـلْ أحدهم هذه الهدية فهذا ديدنُهم جميعاً.

إن برنامـج زراعـة القوقعـة قائمٌ علـى فريق عمـل يُكَمِّل بعضُـه عملَ بعض، ومن المسـتحيل أن يكون لفردٍ واحدٍ

الفضل في النجاح، كما أن لهذا النجاح جنوداً مجهولين لا يقلُّون أهمية عمَّن يقابل المريض، من مدير المستشفى، وعميد الكلية، ومدير الجامعة، إلى موظف الأمن والممرضة، والمراسل، لهذا كان من الإجحاف أن يكرمَ فرد واحدٌ فقط لَم يكن له أن يرضي المريضُ ويسعد بمفرده و لولا تكاتفُ الجميع معه.

هنالك بعضُ المرضى الذين لا يستطيعون أن يتحكموا بمحافظهم، ويريدون إشباع رغبة جامحة لديهم بإخراج شيء من المال لشراء هدية، ولهؤلاء نصيحة ثمينة، ألاَ وهي: التصدق للمريض امتثالاً لحديث المصطفى عليه الصلاة والسلام: ((داوُوا مرضاكم بالصدقة))، وكلنا أمل أن يكون هنالك وقفٌ قريبٌ لزراعة القوقعة تُوضع فيه كل الهدايا، ويرجع ريعها لمرضى لا يملكون أجرة السكن والمواصلات والمعيشة، لكي يُكملوا علاجهم.

العلاج في الهند

قدمَتْ إليَّ أُمٌّ تبحث في علاج لابنتها بعد أن سقطتْ وفَقدت السمعَ، لم تكن هذه الطفلةُ قادرةً على السمع حتى بلبسها لأقوى السماعات، فكان العلاجُ الناجع لها هو إجراء زراعة القوقعة، لكن والدها كان يرفض إجراء العملية؛ على أمل أن تستعيدَ سَمْعَها مرة أخرى، ولتخوفه من إجراء عملية صعبة لهذه الطفلة.

حاولتُ أن أقنعَ والدها بكلِّ ما أوتيتُ من دهاء وفطنة، لكن دون جدوى، وبعد غياب طويل رجعتْ إليَّ الطفلة مع والدتها بالضوء الأخضر لإجراء العمليةً من والدها.

ذهـب والدهـا بها للهنـد، فقد سـمع عـن إمكانية علاج متوفـر هنالك لكـن دون جدوى، وأذْعَـنَ لحقيقة أن ابنته لا تسـمع، وأمامهـا المسـتقبل صعـبٌ دون سـمع، ومن الصعـب عليهـا الذهـاب للمدرسـة والتحصيـل العلمي، وبعـد تردُّد كبير وافق على إجـراء العملية، وبعد إجرائها مباشرةً استطاعتْ هذه الطفلة أنْ تسمعَ بشكل جيد، مما شـجعنا على أن نقنعَ والديها بزراعة قوقعة الأذن الثانية، فقد تجلت الحقائقُ أمامهم، ولكي نحمي الأذن الأخرى من خطـورة التليـف والتكلس ومن ثم عدم اسـتفادتها من إجراء أي عملية للسمع، ومنها زراعة القوقعة.

لم تكن هذه الزراعة الثانية بأقل صعوبة في إقناع والدها مـن العملية الأولى وقـد تحققت ولله الحمـد. بعد أن رأى والدهـا هـذه النتائج أخبرتُه عن رغبـة الفريق في أن يخط بقلمـه المبـدع كتاباً عن زراعة القوقعـة، وكان له بالغُ الأثر فـي توضيح حقائـق زراعة القوقعة من باب: "اسـأل مجرباً، ولا تسـأل طبيبًـا"، لم يتوقـف هذا الرجل عنـد هذا الحد، بـل قام بجهد حثيـث لإقامة جمعية خيريـة لمرضى زراعة القوقعـة، هذا الحلمُ الذي لـم يتحققْ حتى الآن مع جهود العديد من أولياء المرضى وحرصهم على تأسـيس منبر لهم يوصل احتياجاتهم للمسؤولين، ويكون مظلةً لهم يجتمعـون تحتهـا لتبادل المشـورات للرُّقيِّ بهـذه الفئة العزيزة على قلوبنا جميعاً.

في ألمانيا

أخْبَرْنـا – نحن الأطباء – أحـدَ الآباء بأن طفلَهُ فاقداً لعصب السـمع، طبقاً لتقريـر أفضل استشـاريين أشـعة الرنين المغناطيسي في المملكة، ولن أكون مبالغاً لو قلتُ: في العالـم، لَـم يقتنعْ هذا الأب، وأصَرَّ علـى العلاج في ألمانيا، وقد وجد تكلفةَ العلاج باهظةً، ومن ثم رجع إلى السعودية بتقريـر من مركز جامعـيٍّ ومن رئيس القسـم يؤكد فيه قدرته على زراعة القوقعة، وبعد حصولنا على هذا التقرير تواصلنا مع هذا الطبيب، وسألناه: هل اطلعتَ على تقرير الأشعة المغناطيسية، إلا أنه اعتذر بانشغاله في العيادة، وعدم تدقيقه في نتائج الأشعة!

وفـي الحقيقـة: كان عذراً أقبح مـن ذنب، كمـا يُقال، فقد يكـون ثمن هذا الخطأ الطبي عمليـة لطفل بدون فائدة يتبعهـا عمليـة إزالـة للجهاز، غيـر الأثر النفسـي للطفل وللوالديـن والمبالغ الكبيرة التي كانت سـتَتَكَبَّدها هذه الأسرة، والتي بأقل تقديرٍ تتجاوز المليون ريال!

وهذا مريضٌ آخر وقع والداه فريسة سهلة لمستشفى آخر في ألمانيا، فبعد أن أخبرناه عن عدم وجود عصب للسمع فـي كلا الأذنين، ولا جدوى من زراعة القوقعة لَم يُصَدِّق ما قيل له، وذهب بتقرير منا للجنة العلاج في الخارج، ومن ثم إلى الملحقية السعودية في ألمانيا، وقد أفادته الملحقيَّة بأن أول مركز يرد سوف يرسلونهم إليه للعلاج، ولم يتأخر الرد من مركـز جامعيٍّ مرموق في ألمانيـا بقدرتهم على زراعة القوقعـة، فذهب الوالدان متشـوقين لهذا المركز،

والذي اطلع على تقاريرنا، وأفاد والدي المريض بأنه لا يتفق معنا في الرأي، وقام بإجراء العملية، إلا أنه لم ينجح في الزراعة من المرة الأولى، فأعاد العملية مرة أخرى في اليوم التالي! فتخيَّلْ ماذا كانت النتيجة؟ لم يستفد المريضُ من هذه العملية كما أخبرناه، وعاد إلينا بتقرير مخجل لَهذا المركز، ولم نكن لندعه دون أن نُطْلِعَ عليه العديدَ من الأطباء في ألمانيا؛ لكي لا يتكرر هذا مع مريض آخرَ.

تكررتْ هذه القصصُ مع مرضى آخرين، ولكن للّه الحمد العديد منهم رجع إلينا دون أن يدفعَ ثمناً باهظاً لعملية تجرى في مملكتنا الغالية بالمجان، وبيد أمهر الجراحين المتخصصين، فقد أدت القصص السابقة إلى تثقيف المراكز في ألمانيا أن لدينا من الإمكانات التشخيصية والعلاجية في زراعة القوقعة ما يَتَفَوَّق على العديد من المراكز لديهم، وباستطاعتنا تقديم النصح والمشورة لهم.

أتذكر أن مريضاً جاء إلينا بعد أن ذهب إلى ألمانيا بحثاً للعلاج، فقيل له: كيف تأتي إلينا ولديكم أكبر المراكز العالمية في زراعة القوقعة، مركز الملك عبداللّه التخصصي للأذن؟ وكان يلومنا بشدة في عدم إظهار هذا المركز بما يستحق إعلاميًّا!

وأنبِّه أحبتي في هذا الوطن: أن الأطباء السعوديين قد وصلوا إلى درجات علمية عالية، ومهارات فائقة، ناهيك عن مصداقيتهم وتفانيهمً في تأدية الأمانة، واستشعارهم بما يجوب في خلد المريض، وترقبهم لرب العالمين، كما أن الطاقم الطبي والتجهيزات والمختبرات تُقارع أفضل المراكز العالمية، لهذا أنصح كل قريب أو صديق أو جار أن

يغـارَ على بلـده أولاً، وألا يغرر بالمريض للعـلاج في الخارج، فلن يكون يوماً أحرص من الطبيب على هذا المريض، ولن يكون أعلم منه بما يصلح له، وقد يكون سبباً لمضاعفات جسيمة لهذا المريض، أو إحباطٍ له في عدم مقدرته للعلاج فـي الخـارج، ولـن يبخـل الطبيب فـي تقديـم كل النصح والعـون للمريض عنـد علمه بما هو أفضل لـه، ولن تبخل حكومتنا الرشيدة في علاج أي مريض في أي مكانٍ.

أنبوب في أمريكا

وافقـتْ لجنة زراعة القوقعـة لمريضٍ كبيرٍ في السـن لما لديه من حصيلة لغوية ولبسـه للسماعات لفترة طويلة، وبعـد أن أُجْرِيَتْ له العملية لـم يلبس المعالج الخارجي إلا لفتـرة قصيـرة، بحجة أنه لم يسـتفدْ مِـن الزراعة، ولكون العديد مـن أصدقائه الذيـن يتواصل معهم بلغـة الإثارة أخبروه أنه قد جازف بحياته عند إجرائه هذه العملية، والتي لها مخاطرُ كبيرةٌ على المخ، وتُسَـبِّب كهربةً وتشـنجاتٍ وأوراماً.

جـاء إلينا بعـد العملية عدة مرات، وبـدون موعدٍ ليقضيَ الساعات الطوال يخرج ما في جعبته من أسئلة وتشكيك في هذه العملية! لَم يصدق أن إجراء العملية يَصْلُح لكبار السـن، حتى تواصل مع أحـد المرضى الذيـن أجرينا لهم زراعـة قوقعـة في الأذنين، وقد شـارف علـى الثمانين من العمر!

جـاء في إحـدى الزيارات يطلُـب تحويلاً للعلاج فـي الخارج، فقـد أخبره أصدقاؤه الصُّم أن في أمريكا أنبوباً يُوضَع في الطبلة، ومن ثم يسـمع المريض! أخبرناه أن الأنبوب لدينا، ونجـري هـذه العملية للمرضـى الذين يُعانـون من تجمع السـوائل فـي الأذن الوسـطى، ولديـه هو ضعفٌ حسـيٌّ عصبي شـديد، لا يسـتفيد إلا من زراعـة القوقعة، وامتنع الفريـقُ الطبيُّ من تلبية رغبتـه، وإذا بأحد موظفي نزاهة يتصل علينا يستفسـر عن سـبب رفـض الطاقم الطبي إعطاء المريض خطاباً للعلاج في الخارج.

بعد أن ذهب إلى الخارج تَم إخباره أن جميع ما أُجْرِيَ له من تشـخيص وعلاج وتأهيل كان يتناسب كليّاً مع مَرضه، ولا يوجد أي شـيء إضافي يمكن تقديمه له في أمريكا سوى زراعـة القوقعة في الأذن الأخرى، وهـي متوفرة له بالمجان في السـعودية! لَم يصدقْ هذا المريض أن أكبر مركز في أمريـكا لا يجري ثلث ما يقوم به مركزنا من زراعات سـنويّاً، ولكن كما يقال: (زمار الحي لا يُطرب).

تكـررتْ هذه الحالاتُ بسـيناريوهات مختلفة، ولعل الإعلام لدينـا هو فـرس الرهـان لحل هـذه المعضلة، فبـدلاً من التشـكيك في كل يوم بالطب وأهله، وبشـماعة الأخطاء الطبيـة، قد يكون حان الوقتُ ليبـرز الإعلام ما توصل إليه الطـبُّ في مملكتنا الغالية من تقـدُّم في زراعة القوقعة، ليَتَفَوَّق على العديد من المراكز العالمية، وبكوادر وطنية مخلصة وأمينة على المريض وعلى وطننا الغالي.

مِـن غيـر المعقـول أن يشـدَّ أحدٌ رحالَـهُ خارج السـعودية للصلاة في أحدث المساجد والمسجد الحرام والنبوي في بلادنـا، ومن المخجـل بحق أن يذهـبَ للخارج مَـن يريد أن يتعلم الشـريعة الإسـلامية، وبلدنا هي مـن يطبقها في كل شـيء، ومن المسـتغرب أن يذهبَ للخارج من يريد أن يتعلم اللغـة العربية وبلادنا مهبط الوحي، ومن المخجل أن يسـافرَ للعلاج ضعيف السـمع وبكل فخر واعتزاز لدينا مركز الملك عبداللّه التخصصي للأذن.

دُموع الفرح

أُجْرِيَـتْ لمريـض زراعـة قوقعة في أحد المراكـز الخاصة في السعودية، وبعد سنتين من البرمجة والتأهيل لم يستفدْ شـيئاً يُذْكَر، فقَـدِم إلى مركزنا، وأخبرناه عـن إمكانية إزالة الجهاز، ووضع جهاز يتناسـب بشكل أفضل مع حالته، ولَم يتـرددْ فـي الموافقـة، فليس لديه ما يخسـره، وقـد تجاوز السـبعين، ويأمـل أن يسـعدَ باقـي عمـره بسـماع أولاده وأحفاده.

كان لـدى هـذا المريـض تأميـنٌ، وأحبـتْ شـركة التأمين التأكـد مـن هـذا التشـخيص، فأرسـلت التقريـر إلى أحد المراكز الأمريكية المتقدمة، والتي أفادتْ أن الجهاز المزروع يعمل بشكلٍ جيد ولا يستدعي التغيير، وأنَّ الضعف في العصب وقد أُجْرِيَ له كل ما يحتاج!

أخبرنـا المريضَ بـرأي المركز الأمريكي، ولكنـا قلنا له: مع كل الاحترام والتقدير لهم، لكن لدينا من الخبرة ما يتجاوز

هـذا المركـز الأمريكي وغيـره، وفي المقابـل فقد أمضى سـنتين دون اسـتجابة، ولا يمكن أن يسـتمرَّ هكذا باقي عمره، وحتى لو لَم تنجح العمليةُ لا سمح اللّه فقد استنفذ جميع المحاولات، كانتْ هذه الكلمات تتناسـب مع ما يدور في خلد هذا المريض، لهذا وافَقَنَا الرأي مباشرة.

أجريتْ للمريض زراعـة القوقعة، وتكللتْ بالنجاح، وما كان مدهشاً سَماعُه مباشـرةً في يوم تركيب الجهاز، ففاضتْ عينـاه دموعاً أبْكَتْ كل مَن حضر، فليس مِن السـهل أن ترى دموعَ إنسان في هذا العمر!

وبعدمـا يَقْرُب السِـنة، أخبرنـا المريض عـن إمكانية زراعة الأذن الثانيـة، إذا أَحَبَّ، ولم يكـن ليفكِّرَ لبرهة من الوقت، بـل كان الجـوابُ سـريعاً وعَفَويّـاً، نعم وفي أسـرع وقت. أجرينا له الزراعة الثانية، وتكللَت بالنجاح وللّه الحمد!

ذكَّرتنـا هذه الحادثـة بقصة من تجاوز السـتين، وقيل له: إنك تحتاج لزراعة قوقعة بمبلغ كبير للغاية؛ فبكى، فقيل لـه: هل تبكي لأنَّ المبلـغ كبير؟ فقال: لا، بل أبكي لأن اللّه رزقني نعمة السمع ستين عاماً بدون مقابل!.

للّه الحمـدُ والشـكرُ علـى كل نعمائه، وله الثناءُ الحسـنُ أن جعـل هذه العمليـات تُجْـرَى بالمجان لجميـع المرضى السـعوديين، وبأفضـل الأجهـزة، وعلـى أيـدي أطبـاء سعوديين.

ما عندنا قواقع

قَدِمْتُ من كندا، وكُلِّي فخر واعتزاز بكلِّ ما تسلحتُ به من علم ومهارة في عمليات الأذن، وبالأخص زراعة القوقعة من تحت يد أصعب الجراحين الكنديين، علماً وتعليماً وبحثاً ومهارةً، وكنتُ أتَوَقَّع أن يتمَّ الترحيب بي ودعوتي للمشاركة في إنجاح برنامج زراعة القوقعة، لكن قُوبِلْتُ من بعض أعضاء القسم بالوصاية، وبالرفض في دخولي لبرنامج زراعة القوقعة؛ بحجة عدم وجود دعم كافٍ للبرنامج من قِبَل الجامعة، والتي تقتصر على أربع قواقع سنويّاً، لا تقبل القسمة على ثلاثة!

لم يكنْ هذا الرد مقنعاً لي، ودخلتُ في صراع من أجل البقاء، ولكن كيف لإنسان مجهول الهُوِيَّة أن يحظى بثقة المرضى، والذين لن يغامروا مع إنسان لم يسبقْ له إجراء العملية من قَبْلُ في المجتمع السعودي!

بَقِيتُ سنةً كاملةً في عزلة من المرضى ومن لجنة لم ترحبْ بي، وكنتُ أحضُر اجتماعات اللجنة كمستمعٍ، فلم يكن لدي مريضٌ واحدٌ، بينما يعرض لكل استشاريٍ قرابة الخمسة مرضى في كل اجتماع.

ظَهَر بصيصُ أمل، فقد حضر إلى عيادتي مريض لا يسمع، وبعد نقاش طويل تَفَهَّمَ والد الطفل أهميَّة زراعة القوقعة، وبعد أنْ أنهى كل الاختبارات ووافقتْ عليه اللجنة، طلب مني تقريراً لكي يكمل علاجه في مستشفى الملك فيصل التخصصي، وكان حينها أكبر

برنامج في المملكة، وقد تجاوز المائتي عملية خلال أكثر من عشر سنوات، ولم أقبلْ أنْ أعطيه تقريرًا؛ ليقيني أنه لا يوجد برنامج أفضل من برنامجنا، وبعد إلحاح كبيرٍ من والد المريض، وتدخُّل إدارة المستشفى، أعطيتُ المريض التقرير على مضضٍ وتبخَّر أول حلم لي!

ظهَر مريض آخر بعد سنة ونصف من رجوعي للوطن، وقابَلْتُه بكل حفاوةٍ وتَرْحاب، وتابعتُ كل فحوصاته كما يتابع الأب ابنه، وبعد موافقة اللجنة لَم يعطَ المريض جهازاً من الجامعة؛ بحجة أن قائمة الانتظار طويلة، ولا تقسم الأجهزة على الاستشاريين، بل على أقدمية الانتظار، مما يعني أن الدور سيصل لمرضاي بعد عشر سنوات، وكانت اللجنة في حينها تعطي المرضى خطابات لمن أراد أن يبحث عن متبرِّعٍ من أهل الخير، أو من وزارة الصحة.

أعطيتُ مريضي خطاباً، ولكن رئيس اللجنة طالبني بالاعتذار، وعدم تَكْرار ذلك، فهو المخَوَّل من اللجنة بإصدار الخطابات، ولم يرقْ لي العديد من قرارات اللجنة، ولكني لم أفضل التصادُم الكثير معها، وليس لديَّ مرضى لأُناضل من أجلهم، وقد يفسر ما أقوم به على أنه شخصنة للقضية!

أحضر المريضُ الجهاز من وزارة الصحة، وقمتُ بإجراء العملية في أسرع وقت، إلا أن مختصي السمعيات رفضوا الحضور للعملية لعدم إخبارهم مسبقاً عنها، وكنتُ في موقع لا أحسد عليه، فأي تقصير أو فشل لهذه العملية سيُؤكد تحفُّظ بعض أعضاء القسم على قيامي بهذه

العمليـة، وتكلَّلَـت العمليـةُ بالنجـاح، إلا أن رئيـس اللجنة لـم يكـنْ ليُفوت هـذا التقصير في مشـاركة السـمعيات فـي العملية، فكتب لي خطابـاً عن امتعاضه لهذا العمل، إلا أننـي لم أترك الخطـاب ليَمُرَّ مرور الكـرام، فرددتُ عليه بخطـابٍ يُثبت عـدم أهمية هـذا الإجراء مـن رأي مختصي السمعيات عندما تم الاتصال بهم.

ولم أتركْ صديقاً أو عدوّاً إلا وأخبرته بنجاح العملية، وأعطيت المريـض موعداً أسـبوعيّاً في عيادتي لأتمكَّـنَ من متابعة تطـور التأهيل لديـه، ولكي أجعل والـده حريصاً عليه، كان هـذا المريـض وسـيلة لإثبـات مقدرتي فـي إجـراء العملية لجميع المرضى في صالة الانتظار في كل موعد يحضر إليه.

حضـر المريـض الثاني بعد بضعة أشـهر، وكان تشـجيعُ المريـض الأول له كافياً لخوض هذه التجربة، وتكلَّلَتْ هذه العملية بالنجاح ولله الحمد!

في هذه الأثناء توقف برنامج زراعة القوقعة في مستشفى الملـك فيصـل التخصصي، وتقـدم العديدُ مـن المرضى بالشـكوى فـي الصحـف، فقمـتُ بالتواصل مـع مختصي السمعيات في المستشفى هناك، وإخبارهم عن حرصي فـي تقديـم كل الخدمـات الجراحيـة لمرضاهـم، ومِن ثَم تَـمَّ تحويـل هـؤلاء المرضـى إليَّ مـع أجهزتهم مـع قيام مستشـفاهم بالبرمجة والتأهيل، كما قام المستشـفى لدينا بإنزال خبر في الصحف بنجاح العمليات التي أجريتُها، مما جعل المرضى يأتون إلي زرافاتٍ ووُحْدانا.

حَضَـر والـد الطفـل الـذي طلب منـي تحويـلاً للعلاج في مستشـفى الملك فيصل، طالباً منـي أن أعطيه الأولوية فـي الزراعة، فقد كان على قائمة الانتظـار لديَّ قبل غيره، إلا أننـي اعتذرتُ لـه؛ فالأولويةُ الآن للعمر، وليسـتْ للأقدم انتظـاراً، فليـس مـن المقبـول تأجيل طفل أوْشَـكَ على تجاوز العمر الذهبي للزراعة (أقل من أربع سـنوات) بطفل حضر في سن أصغر.

وبفضـل اللّه أولاً وأخيـراً أصبح مركزنا خلال أقل من عشـر سـنوات أكبر برنامج زراعة قوقعـة في العالم، فهل يقبل عقـل أن ينتقلَ برنامـج من ٤ زراعات في السـنة إلى ٦٠٠؟! لدرجـة أننـي لم أعدْ أسـتطيع القيـام بأي عمليـات أخرى بسبب ازدحام عيادتي بمرضى زراعة القوقعة!

قَدم إلـى عيادتي استشـاري في مستشـفى تخصصي، راجِيـاً أن نجـري لابنه زراعة قوقعة، فأخبرتُه أن مستشـفاه يجري زراعة القوقعة، وليس لديهم قائمة انتظار، ولديهم تأهيل بشـكل يومـي، بينما لدِينـا قائمة انتظـار طويلة وتأهيل مرة في الأسبوع، إلا أنه أَصَرَّ أن يجريها لدينا، وقال: لو أُصيب ابني بأي مضاعفات من العملية، فسألوم نفسي مـدى الحيـاة، ولكـن لـو أصيب بأي شـيءٍ علـى أيديكم، فلن ألوم نفسـي؛ فأنتـم أكثرُ مَن يجري هـذه العمليات، فسبحان محول الأحوال!

شكوى في الأمارة

تَخْضَـع زراعة القوقعـة لقوانين صارمة تتأكـد منها لجنة متخصصـة مِـن ذوي الخبـرات فـي الجراحة والسـمعيات

والتأهيل، والتي تقوم بتقييم كل حالة على حدة، بعد أن تتأكد من اكتمال جميع الفحوصات والأشعة، وتجتمع هذه اللجنة بشكل دوريٍّ كل شهر، ومن ثم يتم إخبار المريض إما بالموافقة أو الرفض، أو التمديد للاجتماع القادم حتى تُستوفى الشروط.

كان استشاري الجراح هو مَن يجلس مع المريض، ويخبره بقرار اللجنة، مع أن أغلب الرفض يكون من مختصي التأهيل؛ بسبب صعوبة تقديم الخدمة كاملة للمريض بعد الزراعة لمحدودية الإمكانات لديهم عدداً وتخصصاً.

وبعد أن شرحتُ لأحد الآباء قرارَ اللجنة، خرج بكل سكينة ووقار، ومن ثم وصل للمستشفى شكوى فيَّ مِن هذا الأب فِي التقصير في العلاج باستفسار من الإمارة، لحقها خطاب آخر من وزير الصحة، وشكلتْ إدارة المستشفى لجنةً لمراجعة الشكوى، وحققتْ في الأمر، ووجدتْ أن جميع ما أجري للمريض من إجراءات يتماشى مع سياسة المستشفى الذي من المستحيل أن يتمكنَ من علاج جميع المرضى بزراعة القوقعة، في المقابل كنت في لجنة التحقيق أقف مع المريض وحقه في العلاج، وحقه في الشكوى علي! فقد تأخَّرْنا في تشخيص المشكلة لمدة سنتين، وبعد مُضِيِّ أربع سنوات رفضت اللجنة الزراعة له بسبب كبر عمره، بالمقابل كان الجميع يتفهم سبب التأجيل في عرض الطفل على اللجنة مسبقاً، بسبب معرفتهم بقرار الرفض، وحرصهم على استنفاذ كل المحاولات قبل الفترة المحددة للزراعة، وهي أربع سنوات.

لَم يكــن والد الطفل يعلم ما يدور فــي الخفاء، فأغرقني بســيل العــرم مــن الدعــاء فــي تويتــر، ولَجَــأتُ لوالدتــي كالمعتــاد فــي أحْلَــك الأمــور، وطلبــت منهــا أن تدعوَ له وتدعــو لــي بالفرج، واجتمــع إخوتي، وقــرَّروا تحمُّــل إجراء العمليــة لهذا الطفل، فتواصلتُ مع والد الطفل، وأخبرتُه أننــي لا أملــك له إلا الدعاء، وقــد تَبَرَّع له فاعــل خير بإجراء العمليــة، وإن شــاء اللّه تتحقــق فــي القريــب العاجل عن طريق مركز الأعمال التابع للمستشــفى، وهو مركزٌ خاص يعمــل خارج فترة الدوام، ويُقَــدِّم الخدمات الطبية كبقية المستشفيات الأهلية.

وعندما أخبرتُ إدارة المستشفى بهذا لَم توافقني؛ بحجَّة أن بعــض المرضــى المرفوضيــن ســيقولون: إن الرفــض مقصــود لكــي يجبــرَ المريض علــى الدفع للمستشــفى والطاقــم الطبــي لعلاجه، عندمــا أخبرتُ والــد الطفل أن جميع الأبواب أوصدتْ أمامي، تفهَّم حرصي على مساعدته وتكبلي باللوائح والأنظمة.

وصل الخبر إلى معالي مدير الجامعة، والذي سألنا عن عدم مقدرتنــا على علاج هذا الطفــل، فأخبرناه بأن اليد قصيرة والعين بصيرة والبيروقراطية مريرة، فقد طالبنا بتوسيع الخدمــات وتوظيــف المختصيــن لتقديــم هــذه الخدمــة للمرضى، والتي لا نرضى أن يحمل شــرفها وفخر تقديمها لوطننا الغالي غيرنا، ومن لها غيرنا بهذا التاريخ المشرف من الخبراء المتمرسين وبشهادات عالمية لا تتوفر في أي مؤسسة صحية أخرى.

كانتْ هذه الشكوى فاتحة خير للعديد من المرضى، فقد أصبحتْ زراعة القوقعة على قائمة أولويات المدينة الطبية لجامعة الملك سعود، كما تم تكليفي على مضض برئاسة لجنة زراعة القوقعة والتي كنتُ أتهرب منها لعدة سنوات، مع أن أغلب المرضى يتابعون في عيادتي. تغيرت العديد من لوائح اللجنة ولم يعد من المقبول انتظار المريض لأكثر من ستة أشهر ليحصل على قرار اللجنة، وحالياً يَتَقَدَّم المريضُ بطلب مراجعة القرار، ويتم تنسيق موعد لجميع المرضى مع جميع أعضاء اللجنة العليا من استشاريين لتوضيح قرارات اللجنة.

تهديد ووعيد

أَرْسَل لي أحد المتابعين في (تويتر) رسالةً بخطاب الجماعة: (لن نسمحَ لك باستغلال إعاقتنا)، كما أخبرني ابني أن مقطعاً في اليوتيوب يتهجَّم عليَّ وعلى إحدى القنوات لاستضافتها لي، كما حضرتُ مؤتمراً دوليّاً عن الإعاقة، وقوبلتُ بالنظرات الساخطة من مجموعة من الصم، وتقدَّم إليَّ أحدهم وبالإشارة يقول: كيف تُجري العمليات لهؤلاء الأطفال الصغار، ألا تخاف من اللّه، فقلتُ له: خوفي من اللّه هو ما جعلني أقوم بها!

وصل العديدُ من الإخوة العاملين في مجال زراعة القوقعة العديد من التهديدات من طرفي النقيض، فمن جهة يرى بعض الصم أن زراعة القوقعة هي وأدٌ لهذه الجماعة في مهدها، ويجب التحذير منها، وتهديد من يتاجر في نظرهم بها، في المقابل يرى بعض المرضى وأهاليهم أن

عدم قبولهم للزراعة هو قتل لهم ولمستقبل أبنائهم، ولن يتورعوا في الذود عن حقهم في هذا العلاج ولو وصل الأمر للتهديد والترهيب.

لن أكونَ مبالغاً لو قلت: إنَّ المختصين في هذا المجال بين المطرقة والسندان بين نارين وخيارين أحلاهما علقم.

وصل بعض الإخوة تهديدات في إيميلاتهم ووسائل التواصل الاجتماعي وجوالاتهم، بل حتى في عياداتهم ومكاتبهم، لهذا لم يكن القرارُ بالزراعة أو الرفض بيد إنسان واحد، بل لجنة متخصصة يصل أعضاؤها إلى خمسة عشرة عضوا دائماً ومشاركاً يراجعون كل المعلومات، ويتداولون النقاشات كمجموعة، ومن ثم يصدر القرار من اللجنة، ولا يحق لأحدٍ أن يخرج على قرار اللجنة، ولو لم يكن راضياً عنه، فبعد صدور القرار يقوم الجميع بالتنفيذ والتنفيذ فقط! وهذا يرفع الحرج عن الجميع، فرأي الفرد لا يُعْتَدُّ به، كائناً من كان، حتى لو كان رئيس اللجنة، ومن ثَمَّ يسقط الحرج عن أي عضو في فشل العملية لا سمح اللّه، ولا يكون لأحد الفضل، ولا يحق له أن يشكر فيما ليس له فضل فيه.

كما أن المناهضين والمحاربين لزراعة القوقعة لن يكون أمامهم إنسانٌ واحدٌ يَصُبُّون عليه جام غضبهم، أو يمارسون عليه أي تهديد، فهذه لجنةٌ شُكِّلَتْ لتتأكد من إمكانية تحقيق رغبة مريض بالعلاج، ولم تكن لتَدَع المريض ليسافر للخارج لإجراء هذه العمليات، والتي أصبحتْ من المُسَلَّمات في علاج هذه الإعاقة، كما أنهم يرحبون بهذه المجموعة الغاضبة من زراعة القوقعة

لتقفَ بجانبهم، وتقنع العديد من المرضى بعدم الجدوى من زراعة القوقعة، وأن بإمكان المريض العيش بسلام، وتعلم لغة الإشارة، وأن هذه المجموعة ستكون أكبر عون له، فبدلاً من الصدام بين العلاج الطبي وثقافة الصم يمكن أن يعمل الجميع بشيءٍ من التفاهم والتكامل لتحقيق أفضل النتائج للمريض.

لا لزراعة القوقعة

تقوم جمعياتُ الصُّمِّ في جميع دول العالم بحرب شعواء لا هوادة فيها على زراعة القوقعة، وفي أحد المقاطع رأيت التهويل الكبير من زراعة القوقعة، ومن ذلك أنه لا يسمح للزارعين بالسباحة ولا التسلية، كما أنها تمنعهم من دخول المطارات، وتتعبهم عند التفتيش وتجعل الزارعين متذمرين!

وفي أحد مقاطع الفيديو يصف أحد المبتعثين إلى أمريكا أن مجتمع الصم يعتبرون زارعي القوقعة أغبياء، ولا يتحدثون معهم ويقاطعونهم، ومن خبرته بحالتين في أمريكا فقد استغل الأطباء المال بطرقٍ غير مشروعة، لكي يوهموا أهل الطفل بقدرته على السماع بعد زراعة القوقعة، ومن ثم دخل الطفل مدارس الدمج، ولم يُتقن لغة الإشارة وعن التحاقه بالجامعة رفضه الجميع، ومن ثم رفع قضية على أولياء أمره.

تعليق هنا: هذه حالتان في أمريكا فشلت – ان كان الخبر صحيحاً – مقابل آلاف الحالات التي نجحتْ!

يُنادي البعض بالرضاء بما كتبه اللّه على الأصم، وألا يعارض هذا القدر بزراعة جسم غريب في جسده الذي خلقه اللّه في أحسن تقويم، وكل مَن زرع قد خالف الفطرة، بل يذهب البعض إلى أبعد من هذا، ويطالب أن ترفع الوصاية عن الوالدين تجاه أبنائهم في اتخاذ قرار زراعة القوقعة، و أن يتركوا هذا الطفل ليتخذ القرار بنفسه عند الرشد، وكأنها عقيدة مخرجة من الملة.

يروج هؤلاء المستميتون في حربهم ضد زراعة القوقعة للعديد من المضاعفات والتبعات، التي يشيب لها الرضيع، وقد تكون جداراً فولاذيّاً أمام من يطمح في خوض غمار تجربة مريرة لن يكتب لها النجاح، وستصيب المريض بالعديد من المضاعفات. هنا بعض ما يتم الترويج له من قبل هذه الجماعات:

١. المرضى يعانون من الضوضاء في الطائرة، ويستحيل فك هذا الجهاز.

٢. من يزرعها يُعاني من صداع شديدٍ لا يسعفه أحدٌ!

٣. مصير الأطفال الذين يزرعون القوقعة هو الشلل.

٤. الرادار للسيارات يتداخل مع الجهاز.

٥. تصيب الرأس رعشة مثل سلك الكهرباء.

٦. يمنع من حقوقه في تعلم لغة الإشارة، ويقيد في التواصل مع من حوله.

٧. نسبة فشل العملية عالميّاً ٩٥٪.

٨. يحرم من ممارسة نشاطاته الرياضية.

٩. أي إصابة بعد العملية تسبب شللاً في الجسم.

١٠. أعباء مالية عالية في العملية والبرمجة الدورية وتغيير الجهاز.

وبالطبع فإنَّ كل هذه الادِّعاءات والشائعات غير صحيحة، ويجب أنْ يَحْذَرَ المريضُ وأهلُه منها، ويكفي أن دليلَ دَحْضها نجاحنا في كلِّ جراحاتنا في زراعة القوقعة، وهي أكبرُ برهان لدَحْض هذه الشائعات، وعلى المريض وأهله مقابلة المرضى الذين أُجْرِيَتْ لهم زراعة القوقعة؛ لِيُحَدِّثوه بأنفسهم كيف كانتْ النتيجة وكيف كان التغيُّر.

مسح السمع

تقدَّم العلم ومعه تقدمت التقنيةُ في اكتشاف ضعف السمع لدى المواليد في يومهم الأول، وحيث إنَّ الإعاقة السمعية هي أكبر الإعاقات البشرية انتشاراً، فقد حَرَصَت الدولُ والمنظمات الصحية على اكتشافها في أسرع وقت، وتقديم أفضل الخدمات الطبية لها، ومن ذلك مسح السمع لكل المواليد.

أَقَرَّتْ مُنظمة الصحة العالمية هذا الكشف، وأوصتْ به، إلا أن استجابة الدول تفاوتتْ فيه، فعلى سبيل المثال تبنته عمان الشقيقة في عام ٢٠٠٠ ميلادي، ولَم يلحق بها أحد من دول المنطقة إلا بعد أكثر من عقد من الزمان، ثُم تَم ترشيحي لعضوية لجنة تابعة لوزارة الصحة في دورتها الثالثة لدراسة هذا المسح، وبعد عدة اجتماعات رفعنا

بالتوصيات التطبيقية لهـذا البرنامج، إلا أن البيروقراطية كانت بالمرصاد لكل شيءٍ.

كنا في موقف لا نُحْسَدُ عليه، فبينما كُبِّلنا بهذه اللجنة لم نستطع انتقاد التأخير في التطبيق ومواجهة الانتقادات الدولية لنا في المحافل العلمية، والانتقادات لنا مِن قِبَل المرضى في حل هذه المشكلة الأزلية.

عرضتُ الموضوع على الجميع في أحد مؤتمرات الجمعية السعودية للأنف والأذن والحنجرة، وبعد نقاشٍ مُطَوَّلٍ تقدَّمْتُ بمقترحٍ للرفع إلى مجلس الشورى ومجلس الخدمات الصحية إذا لم تُحَرِّك وزارة الصحة ساكناً خلال شهرين، وبعد شهرين رفعنا تقريراً لمجلس الشورى وإلى اليوم لم يصلنا الرد، بينما جاءنا الرد سريعاً من مجلس الخدمات الصحية والذي رفع بتوصية لاجتماع الخبراء من جميع القطاعات الصحية، وإذا بي مرشح وزارة التعليم العالي دون علم مني، وفي أول اجتماع تم التصويت على رئاستي لهذه اللجنة والتي تشمل عمالقة الحل والربط في تخصص الأنف والأذن والحنجرة والسمعيات، وفي أول اجتماع تم مراجعة مسودة المشروع الذي أعدَّتْهُ لجنة وزارة الصحة، ومن ثم تم إجراء بعض التعديلات والرفع به، بعد ذلك رُفِع للجنة عليا لدراسته، وبعدها على مجلس الخدمات، الذي رفعه لمجلس الوزراء، وفي اجتماع الخبراء لمجلس الوزراء تم تأييده، ومن ثم صدر مرسوم ملكي بإقرار مسح السمع للمواليد برقم ٤٠١٥، وتاريخ ٢٦ محرم ١٤٣٦ هـ، ولقد كان أكبر إنجاز حققتُه في حياتي مع أحبتي وزملائي.

كما يُقال: مشـوار الألف ميل يبدأ بخطـوة واحدة، لقد بدأ هذا المشوارُ بخطوة التحرر من البيروقراطية، وطرْق جميع الأبـواب، ولله الحمـد تحقَّقَ هذا الحلـم، وتحقق معه تبني مجلس الخدمات الصحية لسِجلٍّ وطني للإعاقة السمعية هو السجل الوطني الثاني بعد سجل السرطان.

كنتُ سعيداً جدّاً بمن جَير هذا الإنجاز له ولجمعيته ومركزه ومستشـفاه، ففرحةُ الفوز تشـعر الجميع بدورهم الأبوي والجوهـري للنجـاح الذي لـم يكن ليتحقق لـولا وقوفهم وتشـجيعهم وتصميمهـم، ولكن الفشـل يتيـم، ومثل هذا الفشـل لـم أكن لأتبرأ منـه، فقـد كان تصميماً مني بالدفاع عنه حتى آخر نبض لقلبي.

لقاء الملك

جاءنـي اتصالٌ من مكتب معالي مدير الجامعة بأنَّ الملك عبدالله رحمه الله سوف يحضر إلى الجامعة ليدشنَ العديد من المشاريع، ويود معاليه أن يبرز ما تقوم به الجامعة من حمل للواء الإعاقة السـمعية في السعودية، وتوفير أرقى الخدمات الصحية لهؤلاء المرضى وكرسـي الأمير سلطان لأبحاث الإعاقة السمعية وزراعة السماعات.

أخبـرتُ الزمـلاء بهـذا اللقـاء، وبعـد المبـاركات أخبرنـي أحدهم بأنه سيكون في المقدمة، وسوف يقوم بالتحدث مع خادم الحرمين عن زراعة القوقعة، وتقديم المرضى له، وقد سـانده أحد الزملاء بهذه الأحقية، وهي حماية لي من الحسد، ومن الانتقاد، وعبثاً حاولت إثناءهم عن هذا الرأي

عندها أخبرتهم أني سوف أقوم بهذا الشرف، ولن أحزنَ إذا لم يلبوا دعوتي لهم بحضور هذا اللقاء كمستمعين.

اتصلتُ بالعديد من مرضاي وبعد موافقتهم رفعتُ أسماءهم لحضور هذا اللقاء، والتشرف بالسلام على خادم الحرمين الشريفين، وحضرتُ مبكراً لهذا اللقاء، وكان معي د. أحمد العقربي لكي نساعد المرضى على دخول الحفل سويّاً، وعندما تأخَّر أحدُ المرضى طلبتُ مِن أخي د. أحمد أن يسبقني بمن حضر، وسوف ألْحَق بهم مع من تأخر!

بعد أن حضر آخر مريض ذهبت معه، وإذا بي أرى عن بُعد الدكتور أحمد والمرضى واقفين أمام التفتيش الأول، عندما وصلتُ اكتشفت أن حقيبة الدكتور أحمد لا تقبل الرقم السري، والجميع يحاول أن يفتحها، إلا أنني لم أتحمل الانتظار فكسرتُ الحقيبة وأخرجت بطاقات الدعوة.

عند التفتيش الثاني أخبرنا رجال الأمن عن وجود مغناطيس تحت الجلد لدى المرضى، وسوف يصدر الأصوات عند جهاز كشف المعادن، فوجدنا كلَّ تفهُّم منهم، وأدخلوا المرضى دون تفتيش، كما سمحوا لي بإدخال كاميرات التصوير، فلم أكن لأثق بتصوير الإعلاميين لهذه الفرصة التاريخية.

تَم إخبارنا بموقعنا في الحفل، وكون المرضى لا يستطيعون الانتظار جلسنا على الكراسي، وبينما نحن ننتظر أَخْبَرَني أحدُ المرضى المجدول تحدُّثهم مع الملك أنَّ بطارية المعالج قد شارفتْ على النفاذ، وأنه يود

الذهاب للسيارة لإحضار بطارية جديدة، وكان هذا من المستحيلات، فطلبنا منه إقفال المعالج إلى أن يأتيَ دوره للحديث، وبعد حضور الملك والسلام الملكي رجعنا إلى المقاعد ننتظر التشرُّف بلقاء الملك عندما يعلن عنه، وإذا بأحد الآباء للمرضى يخبرنا أن نكونَ في مكان اللقاء حيث إنَّ الملك قد بدأ الدوران على المعرض المصاحب قبل الحفل، ومن خبرته العسكرية تنبه لهذا، فتسارعنا بالمرضى لمكان اللقاء. تَمَّ توزيع حقائب جديدة للحضور، وإذا بها أفضل تعويض مِن رب العالمين للدكتور أحمد العقربي على كسري لحقيبته.

قابل الملكُ عبداللّه رحمه اللّه المرضى، وتبادَل معهم الحديثَ كما يتبادل الأبُ المشاعرَ مع أبنائه أيام العيد، لقد كانتْ فرحتُهم بلقائه تضاهي فرحتهم بزراعة القوقعة. كان هذا اللقاءُ أجملَ ما قدَّمَتْهُ الجامعة للملك عبداللّه، فالمباني تنشأ وتهدم، ولكن بناء السامعين استثمار لا يَنْضَبُ، ولو كان لي أن أُقْسِمَ لأقسمتُ أن سعادته – رحمه اللّه – كانتْ بلقاء هؤلاء المرضى تَفُوقُ سعادته بالمشاريع الأخرى في هذا الحفل الكبير.

جذع الدماغ

قَدِم إلينا أحدُ المواطنين راغباً في زراعة سماعة جذع الدماغ في السعودية، فأخبرناه أننا لم نُجريها من قَبْلُ، وبقدر ما كنَّا متشوقين بأن نكونَ أول مركز في الشرق الأوسط يُبادر بإجراء هذه العملية المعقدة، بقدر ما كنا متخوفين من التسرع في نزول محيط تتلاطَمُ أمواجه ولا

يرى آخره ولا قعره مع عدم معرفتنا بالسباحة!

تواصلنا مع أحد أكبر الجراحين العالميين في هذا المجال من ألمانيا، والذي رحَّب بالقدوم للسعودية وتأسيس هذا البرنامج، وتقبل الإخوة في قسم جراحة المخ والأعصاب هذه المبادرة، وتكفَّلوا بتجهيز كل شيء في مستشفى الملك خالد الجامعي؛ من أشعة رنين مغناطيسي، ومقطعية، وتجهيز برنامج الملاحة في العمليات، وحجز غرفة للعناية المركزة بعد العملية، وتوفير كل الأجهزة الجراحية، مع سرِّيَّة تامة حيث إنَّ العديد من المستشفيات في الشرق الأوسط كانت تأمل أن تكونَ هي الأولى.

قمنا بتحضير مريض آخر لإجراء العملية، على أمل أن نستغل كل الإمكانيات في فترة واحدة لإجراء عمليتين، ومن باب: لو ألغيتْ عملية لأحد الأطفال يكون الآخر جاهزاً، وقع الاختيارُ من الطبيب الزائر على مريضين بعد أن أرسلنا له كل الأشعة للعديد من المرضى الذين يرغبون بهذه الزراعة.

دخل الطفلان إلى جناح التنويم، وتم تجهيز كل شيء، وفي صباح العملية أخبرني الطبيب المساعد أن أحد المرضى لا يرغب في العملية، فذهبتُ مبكراً لأسْتَطْلعَ الأمر، وإذْ بوالد الطفل الإضافي يخبرني أن والدته اتصلَتْ عليه بالأمس وطلبتْ منه ألا يجري العملية لحفيدها، أخبرتُه أنه سيضيع فرصة ثمينة لغيره في إجراء هذه العملية، فلماذا لم يستشرْ والدته قبل أشهر مِن موافقته على إجراء العملية؟!

نجحت العملية، وبعد شهر أدخلنا المريض إلى غرفة العمليات لتشغيل الجهاز، حيث إنَّ جذع الدماغ يتحكم بالعديد من وظائف الجسم، وقد تؤدي النبضات الكهربائية لهذه السماعة إلى استثارة مراكز أخرى خطيرة للغاية؛ مثل: التنفس، ونبضات القلب، وأحاسيس مؤلمة.

بعد سنتين من نجاح العملية أخبرنا والد الطفلة أن والد المريض الذي دخل معه للمستشفى يطلب منه أن يشفعَ له في إجراء العملية لولده عندنا، لكن أخبرناه أن عليه أن يراجع المستشفى فمِثْلُ هذه العمليات لا تُجرى بشفاعة عبر الهاتف!

كان هنالك حظْر نشر أي شيء في الإعلام دون موافقة المشرف على المستشفيات الجامعية، فقمنا بصياغة الخبر، وإعطائه لوالد الطفلة لأخذ موافقته على النشر قبل الرفع به إلى سلسلة طويلة من البيروقراطية، وفي صباح اليوم التالي وقبل أن يرجع لنا والد الطفلة بالمقال، وجدنا الخبر قد نزل في الصحف. من فرحة والد الطفلة بنجاح العملية قام بالتواصل مع أحد أقاربه الصحفيين والذي نشر الخبر! كنا في موقع لا نحسد عليه أمام المسؤولين والذين سرعان ما تفهموا حقيقة الموقف.

بعد انتشار الخبر جاءتنا مريضة من سوريا بأمر علاج من الأمير سلطان بن عبدالعزيز طيب اللّه ثراه لإجراء عملية جذع الدماغ، كان لديها بقايا من القوقعة، فأخبرناها عن إمكانية زراعة قوقعة مع سماعة جذع الدماغ فوافقتْ، وكانتْ هذه ثالث عملية تجرى في العالم، وتكللت

بالنجـاح، ولم تنم هذه المريضة بعـد تركيب الجهاز، فلم تكن لتصدق أن بإمكانها أن تسمعَ صوتها مرة أخرى!

قامـتْ بعد ذلك بسـنتين مراكـز أخرى تدَّعـي أنها كانت الأولى في إجراء هـذه العملية، ولم نفضل الخوض معها فـي تزييفها للحقائق، لكن كان البقاءُ للأفضل، وتلاشـتْ بقيـة الفقاعـات، كمـا أن مراكـز أخـرى توقفـتْ بسـبب المضاعفات لهذه العملية الدقيقة!

بعـد أربع سـنوات أُجْرِيَتْ عمليتـان تَكَلَّلَتَـا بالنجاح، وكان أطبـاءُ المـخ والأعصـاب يـرون أن الاسـم الصحيـح لهـذه العملية هي: زراعة عصب سمعي صناعي، أما جذع الدماغ فلـم يَدخـل فيه شـيء، وإنما توضـع على سـطحه، ولأن هنالك زراعات في الدماغ المتوسط تدخل فيه؛ لهذا كانتْ تسمية زراعة عصب سمعي صناعي هي الأصح علميّاً.

كنـا فـي حلبة مصارعـة بين أطبـاء أنـف وأذن وحنجرة لا يؤمنـون إلا بالترجمة الحرفية، وبين جراحي مخ وأعصاب لا يقبلون بشيء غير صحيحٍ.

حجر القوقعة

سـافرتُ إلى أحد أكبر المراكز العالمية في زراعة القوقعة؛ لكـي أتأكدَ من أننا لم نتسـرع في إجراء الأعـداد الكبيرة مـن العمليـات دون التأكُّـد من كل شـيء، حتـى لو كان صغيـراً، وبينما أتجـول في هذا المركز اكتشـفتُ أن هذا المركز العلاجي ليس إلا مصنعاً للابتكارات في مجال زراعة القوقعة، فرجعت مثقلاً بالأفكار والطموحات والأحلام.

أحببتُ ألاَّ نكونَ ضيوفَ شرف على زراعة القوقعة، كما أحببتُ أن أترك للسعوديين بصمةً في تاريخ زراعة القوقعة على مستوى العالم، ولهذا تَطَلَّعْتُ إلى ابتكار شيءٍ جديد من باب: "الحاجة أم الاختراع"، فأصبحت أراقبُ عن كثَب أهم الصعاب التي تُواجه المريض وتواجه الفريق المعالج، ومنها استلهمت الأفكار لاختراع شيء جديدٍ، ومن هذه الابتكارات:

١. برنامج رنان: لاحظتُ أن العديد من المرضى يُعانون من صعوبة التأهيل بعد زراعة القوقعة، فاقترحتُ على أحد أعضاء هيئة التدريس في الجامعة والمختص في الحاسب الآلي أن يُساعدَ المرضى بتحويل مادة التأهيل في المستشفى إلى برنامجٍ حاسوبي، واسْتَغْرَقَ هذا الحلمُ أربع سنوات، إلى أنه أثمر عن برنامج في غاية الروعة، ساعد العديد من المرضى بما نسبته ٥٠٪ تقريباً من التأهيل بأقل تقدير، وخاصَّةً لمن هم مِن خارج منطقة الرياض.

٢. جهاز حجر: واجَهَتْنا في العمليات صعوبة إجراء الزراعة بجرحٍ صغيرٍ وبدون حلاقة حيث إنَّ الإضاءة لا تصل لمنطقة مهدِ الزراعة، فتقدمتُ بتصميم جهازٍ بمقدوره كشف المنطقة المستهدفة وبإضاءة، وتَبَنَّتْهُ أكبر شركة مُصَنِّعة لأجهزة العمليات، وأصررتُ أن تسميه: "جهاز حجر".

٣. ملقط حجر: تواجه العديد من الجراحين صعوبة مسك سلك الغرسة، وتحسس أي مقاومة في إدخال الجهاز

للقوقعة، فابتكرتُ جهازاً يقوم بتوثيق المسكة على سلك الغرسة، واستشعار أي مقاومة من داخل القوقعة لتجنب إصابة القوقعة أو تلف الغرسة.

وهنالك العديد من الابتكارات التي لا يُسمح لي الإفصاح عنها حاليًّا؛ حيث إنها في طور التسجيل كبراءة اختراع، وقد وصلتْ إلى خمسة اختراعات حتى هذا الوقت، وكلي أمل أن ترى النورَ قريباً، ويسعدَ بها جميع الممارسين الطبيين وقبلهم المرضى، وكلي يقين أن التنين قد خرج من عنق الزجاجة، وبإذن اللّه سيرى ويسمع العالم عن مصنع سعودي للابتكارات والتطوير في مجال زراعة القوقعة، وليس ذلك على اللّه بعزيز.

مع أني ما زلتُ أرى أن أكبر شيءٍ حققتُه في حياتي كان تأسيس زمالة التخصص الدقيق للأذن بأرقى المعايير العالمية؛ ليتخرجَ منها أطباء سعوديون يتحقق فيهم القول: (تلميذ فاق أستاذه).

حجر السفير

كنتُ في طفولتي مغرماً باللبس، أو كما يقال: "التشخيص"، وكانتْ والدتي – أَمَدَّ اللّه في عمرها – دائماً ما تقول: (بتروح تقابل السفير؟)، كنتُ أعتقدُ منذ صغري أن السفير هو أهم إنسانٍ على وجه الأرض، لهذا يجب أن يقابله الإنسان وهو في أحلى حلة، بل كنتُ أتطلع لكي أكون سفيراً، ثم تبخَّر هذا الحلمُ عندما دخلتُ السلك الصحي، ولم أدخل السلك الدبلوماسي.

شاءت الأقدارُ أن يكون السلك الكهربائي القوقعي هو نهايتي في تخصص الطب، فزراعة القوقعة عبارة عن ادخال سلك في القوقعة المصابة يحمل النبضات الكهربائية، ولكن القدر جعلني سفيراً من غير حقيبة؛ حيث دُعيتُ عام ٢٠١٤ إلى اجتماع الأكاديمية الأمريكية للأنف والأذن والحنجرة لأقدم محاضرة عن زراعة القوقعة، وهو أكبر محفلٍ علمي في العالم، ويقام كل سنة ويحضره الأطباء مَن كل المعمورة بعد الانتهاء من إلقاء المحاضرة، تم تسليمي شهادة كتب عليها: سفير النوايا الحسنة للأكاديمية الأمريكية! كان ذلك في ٢٣ سبتمبر، وهو اليوم الوطني لحبيبتي السعودية؛ لهذا كانت أهلاً لهذه الهدية.

كان هذا المنصبُ والتكريم يفوق تطلعاتي، ولم أعلمْ عنه مسبقًا؛ لهذا لا أجدني أهلاً له، ولا أجد ما يقنع والدتي أني لم أحظَ بمقابلة السفير، بل بالتكريم بهذا المنصب وفي أمريكا، قد تكون الأيام حُبلى ويتم تعييني سفيراً بحقيبة، وعندها هل يعتقني السلك الكهربائي للقوقعة؟ ولمن؟ للسلك الدبلوماسي!

للّه الحمد يتم دعوتي للعديد من المؤتمرات الدولية والندوات والدورات، وتشرفتُ بتمثيل بلدي الغالي في العديد من المحافل الدولية، وكنت أعتذر عن العديد من المناسبات الأسرية في نهاية الأسبوع بسبب استغلالي لها في تلبية دعوة لمحاضرة في لقاء علمي داخل وخارج السعودية، لدرجة أن أحد أقربائي قال لي مازحًا: متى ستسافر للسعودية؟!

وأتوقع أن سفرياتي تجاوزتْ سفريات السفير إلى مستوى وزير الخارجية، ولكن ليس بجواز دبلوماسي! هذه المؤتمراتُ أثْرَتْ لديَّ العديد من سبل الاكتشاف، وحل المشاكل، والتنبؤ بها، ورسمتُ خريطة للمستقبل تزداد وضوحاً بالتفاصيل المستوحاة من هذه اللقاءات، فلا عجب أن لا يوجد ملمتر في جواز سفري إلا به ختم دخول أو خروج، أو تأشيرة، أو طابع، أو توقيع، فلا نامتْ أعين المتقوقعين.

القوقعة المكسورة

يقول: عندما كنت في سن ٢٣ عاماً، وقع لي حادث سير؛ حيث انقلبتْ بي السيارة عدة قلبات، أدتْ إلى كسر في قاع الجمجمة وكسر فوق العين وفي الفك! عند وقوع الحادث كنت أسمع جيداً، وبعد مضي ساعتين سمعتُ بإذن واحدة، ولمدة خمس ساعات، وبعد ذلك فقدت السمع، وكانَ لديَّ نزيف في الرأس!

أُدخلتُ المستشفى، وأقمتُ به ١٢ يوماً، وأنا في غرفة الملاحظة ولم أفقدْ وَعْيِي، بعد يومين ضعف عصب الوجه، وأعطيت بعض العلاجات له، وبعد شهر رجع العصب إلى وضعه الطبيعي، كشفتُ في عدة مستشفيات ومستوصفات خاصة، بعضهم يقول: تحتاج وقتاً لتسمع، والآخر يقول: لا أمل إلا بتدخُّل جراحي! أرسلتُ تقاريري للخارج من أجل العلاج، وأحببتُ أن أحصلَ على تقرير جيد من المستشفى الجامعي الذي أخبرني عن وجود العلاج فيه، ولا داعي للسفر للخارج.

بعد سبعة أشهر من الحادث أُجْرِيَتْ لي عملية زراعة القوقعة، ولم يحدثْ لي أي مضاعفات، وبعد أسبوع من الزراعة تم تركيب الجهاز، وخلال التركيب أصبحتُ أسمع بعض الأصوات، وبعد يومين بدأت أسمع بعض الكلمات، حتى تَمَكَّنْتُ من السماع بشكل طبيعيٍّ، بعدها ألَحَّ عليَّ الدكتور حجر في زراعة الأذن الثانية، وكنتُ مُتردداً كوني أمارس حياتي بشكل طبيعيٍّ، لكنه كان متخوفاً من تكلس القوقعة الثانية؛ كونها مكسورة، وبعد الزراعة الثانية أصبحتُ أنعم بشيء من الاطمئنان كوني لديَّ أذنان قادرتين على السمع بشكل طبيعيٍّ، وإحداهما سوف تقوم بالواجب عند توقُّف الأخرى لأي سبب.

تُعَدُّ زراعة القوقعة صعبة للغاية في القواقع المكسورة حيث إنَّ الطريق للقوقعة يكون صعباً مع العظام المكسورة، والتحامها بشكل يربك الجراح في التعرف على العلامات المرشدة في هذه العملية الدقيقة، كما أن عصب الوجه قد يَتَأَثَّر أثناء العملية، بالإضافة إلى صُعوبة إدخال الاقطاب المزروعة إلى جوف القوقعة لتليُّفها أو تكلُّسها.

أُجْرِيَتْ عملية زراعة القوقعة لعشرة مرضى أُصيبوا بكسر في القوقعة، ونشرتُ هذا في إحدى المجلات العلمية العالمية، كما قمتُ بتقديم هذه الحالات الصعبة في العديد من المؤتمرات، وبقدر ما كنتُ سعيداً في إيضاح ما توصلتْ إليه بلدي الغالية من علاج لأصعب الحالات، بقدر ما كنتُ حزيناً على هذه الحوادث والإصابات من السيارات.

ملَـكة اللمـس

كان ذاهباً في رمضان لشـراء السحور الساعة الثانية فجراً مَشـياً علـى الأقـدام، وذلك بعـد انتهائه مـن عمله، هذا كلُّ مـا يتذكَّر، انقطعـتْ ذاكرتُه هنا؛ لأنَّ إحدى السـيارات صدمتْهُ مـن الخلف؛ مما أدْخَلَهُ إلـى العناية المركزة، ومن ثـم بقـي في غيبوبة قرابة سـتة أشـهر، وعندما فاق من الغيبوبة وجد نفسه فاقداً السمع والبصر، وبهذا فقَد أي تواصـل مـع العالم، ولا حول ولا قوة إلا باللّه، لكنه لم يفقدْ بصيرته، ولم يفقدْ إيمانه بربه!

بَقِـي على هـذه الحـال قرابـة ثلاث سـنوات، عانـى فيها وتجـرَّع مرارة الحرمان من السـمع والبصر، وكان إلى جانبه أهله الذين تقاسـموا معه التحديات والصعوبات والأحزان، وتواصوا بالحـق، وتواصوا بالصبر، وتمكنـوا من التواصل معه.

نعم تَمَكَّنوا وبطريقة غريبة، فهو لم يفقدْ حاسَّة اللمس، لهـذا قام هو وأهله بتنمية ملكة اللمس لديه، وتواصلوا معه بالكتابة على كفِّه، أو تحريك أحد أصابعه في الهواء؛ ليُحاكـوا بهذه الحـركات كتابة الكلمـات، أو يضع يده في وجـه المتحـدث ومـن تقاسـيم الوجـه وحركتـه يتنبأ بما يقول، وبهذه الطرق يَتَمَكَّن من فَهْم من حوله!

مَـرَّتْ ثـلاث سـنوات، كانت كل دقيقـة منها بسـنة عليه وعلـى أهله، لم يفقدوا معها الأمـل، وراجعوا العديد من الأطبـاء والمختصين الذيـن لم يجدوا عندهـم حلاً لهذه المشكلة، وبعد الترقب ومحاولة اكتشاف أي أمل سمعوا

عن زراعة السماعة العظمية "الباهة" في مدينة الرياض، فأحبُّوا أن يلاحقوا هذا البصيص من الأمل حيثما وجد، فهو يعني الكثير والكثير لهم، وعندما قابلوا الطبيب أخبرهم أن جهاز الباهة لن يفيدَه؛ حيث إنه يُعاني من كسر في القوقعة، ولكن الطبيب أَخْبَرَهم أن هنالك أَملاً آخر ضَعيفاً، وهو زراعة القوقعة، ويحتاج هذا الأمر إلى دراسة حالة المريض من قِبَل فريق زراعة القوقعة، كما يحتاج إلى العديد من الاختبارات والتقييم، والتي تتطلب متابعات ومراجعات كثيرةً لمدينة الرياض، فكان بصيصُ الأمل الذي يغيب أكثَر من أن يظهرَ، قادراً على إذابة جميع التحديات الكبيرة التي تقف شامخةً أمامه.

بعد إجراء العديد من الأشعة والتحاليل والتقييم، عُرضتْ حالتُه على لجنة زراعة القوقعة، والتي رأتْ أن حالته صعبة جدّاً، واحتمال نجاح العملية ضعيفٌ، كما أنه بسبب قلة الأجهزة المتوفرة – ذلك الوقت – فإن حصوله على جهاز القوقعة قد يَحْرم شخصاً آخر قد يستفيد منه، وقد تسجل هذه العملية كَإحدى الحالات التي لم تنجحْ، وقد يُشكك في مصداقية هذه اللجنة والثقة الملقاة على عاتقها، وهي مركز علمي موثوق، في جامعة الملك سعود، لهذا لم توافق اللجنة.

كان خبرُ الرفض برداً وسلاماً عليه وعلى أهله؛ فقد سَلَّموا أمرهم للّه، ولم يكنْ لقرار اللجنة أن يُزَعْزِعَ لديهم هذه الثقة باللّه، ولا أن يلوموا أنفسهم بإهدار وقتهم ومالهم مقابل أمل ضعيف جدّاً، وها هو اليوم يَتَبَخَّر مثل غيره، وبعد هذا قام الطبيبُ المعالج بعرض الحالة على مراكز

عالمية متقدمة، والتي نصحتْ بإجراء العملية، وقال له أحد الخبراء: "مِن الأفضل أن تخسرَ جهازاً، ولا تخسر إنساناً".

كانتْ عائلتُه تقف موقفَ الراضي المسلِّم لقضاء اللّه وقدره من جانب، ومن جانب آخر فهي تفعل الأسبابَ، وتتقرب إلى اللّه في كل ما يُفيده، وافق أهله على عرض الموضوع على اللجنة والقبول بقرارها مرة ثانية، فالخيرةُ دائماً فيما يختاره اللّه، كما أنهم راضون بالنتائج وبالمضاعفات التي قد تَتَسَبَّب بها العملية.

كان أبوه كبيراً في السن بحيث يَصْعُب عليه السفر مع ابنه، ولكن إيمانه باللّه كان أكبر من كل هذا، وقال للطبيب: "نحن سلَّمنا أمرَنا للّه، ورضينا بقضائه، ونشكره على نعمه، وأنتم يا أطباء لستم إلا أسباباً، والخيرُ والشكر كله للّه"، كان أخوه رجلَ المهمات الصعبة، فهو عسكريٌّ، ويستلم مناوبات في مدينة تبعُد عن الرياض ٣٠٠ كيلو متر، وهو العائلُ لأهله بعد إصابة أخيه، ومع كل هذا إلا أنه لم يتأخَّرْ يوماً عن موعد تخطيط أو أشعة أو عيادة، وكان ملازماً كالظل لأخيه الذي لا يتركه حتى في ظلام الليل الحالك!

عرَض موضوعَه على لجنة زراعة القوقعة مرة أخرى، والتي رأتْ أن حالته استثنائية فعمرُه سبعة وعشرون سنة، وأمامه عمرٌ طويل بإذن اللّه، والسمعُ هو الأملُ الوحيد لديه في التواصُل مع مَن حوله، وهناك إدراك منه ومن أهله بصعوبة اتخاذ مثل هذا القرار، وصعوبة العملية وصعوبة التنبؤ بنتائجها، والتي قد لا تنجح، كما أنَّ حِرْصهم الدؤوب

على مراجعة المستشفى مع بُعد المسافة وتسليمهم بأيِّ قرار للجنة وأي نتائج للعملية – كان له التقديرُ من جميع أعضاء اللجنة، كلّ هذه الأمور بجانب رأي الخبراء الأجانب كانتْ كافيةً لإقناع اللجنة بالموافقة على أن يتحمَّل الجرَّاحُ كل التَّبِعات.

لم يكن الجراحُ أقل حالاً من أهله؛ فقد كان متفهماً لصعوبة العملية، وبالمقابل فهم جميعاً مُستسلمون لقضاء اللّه وقدره، مع عملهم بالأسباب، وبالفعل أُجْرِيَت العملية له في مستشفى الملك عبدالعزيز الجامعي، ولصعوبة التواصل معه من قِبَل الطاقم الطبي كان الميدانُ لأخيه الذي دخل إلى غرفة العمليات ليكون بجواره، ربما تكون هذه المرة الوحيدة التي يدخل فيها أحَدُ أقارب المرضى إلى غرفة العمليات، وقد سجَّلها التاريخُ له؛ سيكون هنا إبرة، وهنا لفة الضغط، وهذه كمامة المخدِّر، كانت الترجمة فوريةً، والتواصل سريعاً بينهما، وكل هذا بحركات الإصبع.

بعد أن تخدَّرَ غادر أخوه غرفة العمليات، مليئة عيناه بالدموع، وقلبه بالإيمان باللّه والتوكل عليه، وتكلَّلت العملية بالنجاح، وكان من حظه أن يكون أول مريض تُجرى له عملية زراعة قوقعة بأحدث الأجهزة العالمية، فسبحان اللّه! وكما يقال: "كلُّ تأخيرة وفيها خيرة".

كان من المفترض أن يتمَّ تركيب الجهاز الخارجي بعد ستة أسابيع، إلا أنه طلب أن يكون خلال فترة أقصر، فتم تلبية طلبه بعد أسبوعين من العملية، وعندها بدأ بسماع بعض الأصوات من حوله دون أن يفهم معناها، وهذا

في حدِّ ذاته كان كافياً أن يرسـمَ الابتسـامة على شفاهه، ويخرجـه من عالـم الصمت، وخلال فترة وجيـزة تَمَكَّنَ من السماع بشكلٍ جيدٍ يُمَكِّنه من التواصل مع مَن حوله.

قام بعدها هو وأهله بمدِّ يد العون لكل مَن قد يمر بمثْل معاناتهـم، وشـاركوا في تدشـين كرسـي بحـث الإعاقة السـمعية وزراعة السـماعات، كمـا تَشَـرَّفوا بمقابلة ملك الإنسـانية عبـد اللّه بن عبدالعزيز رحمـه اللّه، والذي تبادل معه الحديث، واطْمَأَنَّ على صحته ودعا له.

لـم تنته قصتـه بعدُ، حيث حصل على جهـاز قوقعة آخر، وتم التشـاور معـه ومع أهله في زراعـة الأذن الأخرى الأكثر صعوبـة، وقد كان هو وأهله متفهمين لهذه الصعوبات، كمـا تفهـم القائمون فـي برنامـج زراعة القوقعـة لحالته، ومـا رزقه اللّه من أهلٍ متفهِّمين وصبورين ومحتسـبين. أجريـتْ لـه عملية زراعة القوقعة فـي الأذن الأخرى، وها هو اليوم يسمع بكلتا الأذنين، وللّه الحمد.

هـو وأهلـه سَـطَّروا أجمـل معانـي الترابُط الأسـري في المجتمـع السـعودي العربي المسـلم، ويحقُّ لنـا جميعاً التفاخُر والتباهي بهم، فالأسرةُ هي نواةُ المجتمع الصالح، وهـو وأهلـه وأمثالهم هم فـي الحقيقة ثروةُ هـذا البلد الذي يحق لكل سـعودي أن يرفعَ رأسـه بهـم، فرضاؤهم بقـدر اللّه وتسـليمهم واستسـلامهم لقضائه لـم يقفْ مانعاً أمام فعلهم للأسباب، كما أن تقبلهم لمشيئة اللّه جعلتْ عاقبةَ أمرهم خيراً، فإن أصابتْهم ضراءُ صبروا، وإن أصابتهم سراء شَكَروا، وليس ذلك إلا للمؤمن.

المعارضة المؤيدة بصمت

اكتشف أهلُها أن لديها ضعفاً في السمع في مراحلَ مبكرة؛ حيث إنَّ لدى أهلها خبرةً بهذا الضعف، فاثنان من إخوتها مُصابان بضعف السمع الشديد في كلتا الأذنين؛ مما سبب لهم صمماً وبكماً، وقد حرص أهلُهم على علاجهم وهم صغار، لكن في ذلك الوقت لم يتمكنوا من ذلك، وقد سمعوا عن زراعة القوقعة، فأحبوا أن يكونَ حالها أفضل مع تقدُّم العلم.

لكن كيف لهم أن يُقنعوا أخويها الصم على إقدامهم على هذه الزراعة، وهم يُعارضون هذه العمليات أسوةً ببقيَّة مجتمع الصم، وكيف لهم أن يُمَيِّزوا أحد أبنائهم عن أخيه، وفي المقابل إذا لم تنجح العملية أو رافقها مضاعفات – لا سمح الله – فكيف سيكون حالهم مع ابنيهم الصم؟!

راجَعَ أهلُها مستشفى الملك عبدالعزيز الجامعي، المتخصص في هذه العمليات المتقدمة الذي أفادهم بإمكانية زراعة القوقعة لها بعد أن أجري لها العديد من الاختبارات السمعية والأشعة المقطعية، وتم إجراء العملية بنجاح، وخلال أقل من سنة تمكنتْ من قراءة المعوذات، ونطق اسمها وأسماء إخوتها بوضوحٍ أفضل من طفل سليم في عامه الأول.

خلال سنتين فقط من إجراء العملية أصبح بمَقْدُورها السماع الجيد، وتركيب الجمل، والتحدث في الجوال، ومن ثم التحقتْ بمدارسَ تقليدية، وأصبحتْ من المتفوقات

ومن المستحيل أن يصدقَ أحدٌ أنها صماء ولا تسمع إلا بالقوقعة المزروعة!

لقد كان لأهلها الفضلُ في تَمَيُّز حالتها ونجاحها، وذلك لما أولوها من اهتمام شديد عند المراجعة في المستشفى ومتابعة المواعيد، كما يعود لهم الفضلُ في تصحيح العديد من المفاهيم الخاطئة عن زراعة القوقعة في المجتمع السعودي؛ حيث كانوا من السَّبَّاقين في مد يد العون لكل من يودُّ إجراء مثل هذه العملية.

كان إخوتها الصم المعارضون لزراعة القوقعة في دهشة لما آل إليه حال أختهم، وكيف أنَّ ما تَرَسَّخَ في عقولهم عن زراعة القوقعة لم يكن صحيحاً، وها هي أختهم تَنْعَمُ بالسمع والكلام، ولم تعانِ من أي مضاعفات، عندها قاموا بوضع صور أختهم في مواقع الشبكة العنكبوتية للصم؛ ليُصَحِّحوا معتقداتهم الخاطئة عن زراعة القوقعة، ولكنهم لم يسلموا من الانتقاد والتهجُّم من مجتمع الصم، فآثروا من بعدها السكون لعدم الخروج على الإجماع، خاصَّةً بعد أن كان الردُّ لهم بلا عندما سألوا عن إمكانية زراعة القوقعة لهم وذلك لكبر سِنِّهم.

جاهل متجاهل

قدم إلينا بعضُ المرضى بضعف سمع شديد، ومعهم تخطيطات للسمع تُوَضِّح صعوبة حالتهم، إلا أنهم تأخروا في الحضور بسبب استشاري نصحهم بعدم إجراء زراعة القوقعة، وتكررت الحالاتُ من نفس الاستشاري، والغريب العجيب أنه يطلق على نفسه بروفسور، وهو لم يسبقْ

له التدريس في أي جامعة، أو نشر بحث واحد، ويعمل في عيادة خاصة في منطقة نائية!

بل أخبرني أحد المرضى أن هذا الطبيب قال له: (أنا لا أتفق مع الدكتور حجر في علاج المرضى بالجراحة)، فقلتُ له: هذا يختلفُ مع العالَم كله وليس مع د. حجر فقط.

لم أرَ هذا الطبيب في أي مؤتمر ولا حلقة نقاش، ولم يُنْشَرْ له بحث واحدٌ، ولا يعرفه أحدٌ، ولا أعرف أي علم أو أي فهم جَعَلَهُ يختلف مع العالم برمته؟! ولماذا لا يظهر ويناقش ويكتفي بالتقوقع وبث الخزعبلات بين المرضى؟!

طلبتُ من أحد المرضى أن يطلبَ منه التواصل معي بالهاتف، إلا أنه اعتذر، وقال للمريض: نحن من مدارسَ مختلفة، ولن نتفقَ! كلماتٌ كبيرة توهم المريض أنه أمام أحد أساتذة المذاهب الكبار، والعلماء الجهابذة الذين لا يشق لهم غبار.

أوصيتُ أحد الأطباء من هذه المنطقة البحث عنه والتأكد من شهاداته، وما ينقل عنه قبل أن أرفع باسمه للجهات المختصة لاتخاذ اللازم، إلا أنه أخبرني أنه قد سافر إلى بلده، وبقدر ما كنتُ سعيداً لهذا الخبر بقدر ما كنتُ حزيناً على عدم التواصل معه، والطلب منه أن يتحلل في الدنيا قبل الآخرة من المرضى الذين غرَّر بهم.

يقع العديدُ من المرضى فريسةً سهلةً في أيدي بعض المنتسبين للمجال الصحي؛ لجَهْلهم بتخصص هذا الطبيب، وتمكنه من مجاله، أو لتزوير هذا الطبيب

لشـهاداته ورتبتـه العلميـة، كمـا أن البعـض يبحـث عن الطبيب الذي يرضيه بما يرى أنه الأفضل، وهذا أشـبه بمن يتتبع الرخص بين المذاهب، حتى لو كانتْ هذه المذاهب مَشْبُوهة، صحيح أن خيارَ الجراحة لطفل في مُقتبل العمر يدمع العين، لكن خيار الصمم مدى الحياة يُدمي القلب!

كلـي يقيـن أنَّ زراعـة القوقعـة سـتمُرُّ مـن خـلال طريق طويـل حتى يُسَـلِّم الجميع أنها هـي العلاج الأفضل لمن فَقَـد السـمع، ولن يقوم بهذا إنسـانٌ أفضل من المرضى أنفسـهم، وذلك بتحدثهـم عن حياتهـم وتجربتهم مع الزراعـة، لهذا نقيم سـنويّاً لقـاءً للمرضـى يتحدثون عن تجاربهم ليسـتفيد منهـا المُقْدِمون على هـذه التجربة، كما نسـتفيد نحن منها في تطوير سُبُل الوقاية والعلاج والتأهيـل، بهذا نقضـي على كلِّ جاهـل متجاهلٍ لبس سـماعة الطبيـب، وانتحـل شـخصيته، وادعـى تخصُّصه وخصوصيته.

كندا تتعلَّم من السعودية!

تُعَـدُّ كنـدا مـن أفضـل الـدول فـي المعرفـة والتعليـم والأبحـاث، وتتربَّع فـي كثير من التخصصـات على القائمة المتميزة، لهذا يعشق الكثير من الأطباء إكمال دراستهم في مجال الطب في هذه الجامعات العالمية، ومما يُسَجَّل فـي تاريخ مملكتنـا الغالية أنها اسـتثمرتْ فـي التعليم العالـي للأطباء الجامعييـن، وفي احنك الظـروف، فعلى سـبيل المثـال: كان برميـل النفـط في سـنوات ابتعاثي لكندا يعادل ١٨ دولاراً للبرميل على استحياء، ومع هذا لم

تتوقفْ حكومتنا الرشيدة عن الابتعاث للخارج؛ ليقينها أن الاستثمار الحقيقيَّ سيكون في المعرفة.

كنتُ أذهب في كلِّ سنة إلى كندا لكي ألْتَقي بأساتذتي، وأتعلم منهم، وأستشيرهم، وفي المقابل كانوا يُقابلونني بكل حفاوة وتَرْحاب، ويتشوَّقون لمعرفة ما حققتُ أنا وزملائي من إنجازات في مملكتنا الغالية، وكنتُ سعيداً أنْ أزُفَّ لهم في كل عام خبراً جديداً عن ما تحقق في تخصصي، إلا أنه في عام ٢٠١٤ صارحني أحدُ الأساتذة في جامعية (مجيل) العريقة عن رغبته في إرسال بعض الأطباء في الزمالة الكندية إلى مركزنا؛ لكي يَتَعَرَّفوا عن قرب إلى ما توصلتْ إليه المملكةُ من نقلة نوعية في زراعة القوقعة، فرحبتُ بالفكرة، وطلبتُ منه أن يُرْسِلَ خطاباً بهذا للجامعة؛ لكي تتبنَّى الفكرةَ، وتُسَهِّل دخول الأطباء إلى السعودية، فتَمَّ هذا، وأصبحت إحدى الشهادات العالمية لهذا المركز.

المُضْحِك أن البعض سمع بالخبر، وشكك فيه، وأنها بَهْرَجة وكلام لا يَدْخُل العقل، ومنذ متى والغرب يَتَعَلَّم عندنا، لكن مع وصول الخطاب على أوراقٍ رسمية، وموقَّع من رئيس البرنامج، لم يجد المشككون وسيلةً لمحاربة هذا الإنجاز، سوى بالمساومة عليه، والتشكيك في تطبيقه، وكيف أنه سيُؤثر على المرضى الذين هم "الشغل الشاغل لهؤلاء المشككين"، كما أن الأطباء السعوديين قد يتأثر تحصيلُهم العلمي والمهني من هذه الاتفاقية؛ لأن غيرتهم على المتدربين لا تَقِلّ عن حِرْصهم على المرضى.

تَمَّ الاعتذار بشيءٍ مِن الأدب للجامعة الكندية عن مشاركة أطبائهم لدينا في العمليات، والسماح لهم فقط بالحضور والاطِّلاع، والمشاركة في الأبحاث، وهذا ما يتم اتِّباعه في الجامعات العالمية؛ حيث إنَّ المشاركة في علاج المرضى يتطلب التمكُّن من التواصل مع المريض بشكل جيد، والحصول على تأمين صحيٍّ، والخلو من أي أمراض مُعْدِيَة، بالإضافة إلى الاعتراف بشهادته في الهيئة الصحية، وبهذا لم يقفل الباب، وتَمَّ الافتخارُ بالشهادة وقبول كل مَن يرغب الحضور والمعرفة وإجراء الأبحاث، ولم تلبث الجامعة الكندية إلا أنْ أرسلتْ أحد أكبر الباحثين لديها في الإعاقة السمعية، ويحمل شهادة الدكتوراه، ورئيس مركز الأبحاث؛ لكي يتعرَّف عن قرب على أفضل السبل في إجراء الأبحاث المشتركة بين أعرق جامعتين في كندا والسعودية، جامعة (مجيل) وجامعة الملك سعود.

زمالة وزملاء

زمالة التحديات

أنشأتُ زمالة تخصص دقيق للأذن وأعصاب الأذن في سنتي الأولى في السعودية بعد رجوعي من كندا، لكن قُوبل هذا المشروع بالمعارَضة من بعض أعضاء القسم، فمنهم من قال: إنَّ هذا مُضِرٌّ بالأطباء المتدربين في زمالة الأنف والأذن والحنجرة، ومنهم من قال: لم نصل بعدُ إلى مستوى الغرب؛ لهذا نحتاج أن يذهبَ مَن يبحث عن التخصص الدقيق إلى الخارج، ومنهم من قال: طلبة الطب هم الهدف الأولى بالاهتمام، ومنهم مَن عرَّض بالقول: إن هذا الطبيب لم نره بعدُ يجري العمليات، فكيف به يُدَرِّب الناس عليها؟!

قوبِلَت أول مسودة لمشروع الزمالة بالتأجيل في اجتماع القسم؛ بحجة عدم مراجعتها من خبراء القسم، فقمتُ بإرسال خطابات دعوة للخبراء بحضور الاجتماع لمناقشة الزمالة قبل الرفع بها للقسم مرة أخرى، فلم يحضُرْ نصف الخبراء بحجة انشغالهم، وبحجة أن الدعوة لحضور الاجتماع قد كانتْ مني وليستْ مِن أكبر خبيرٍ، وبحجة...، وحجة...، وحجة...!

وافق رئيسُ القسم على عرض المشروع مرة أخرى على المجلس، وقوبل هذا المشروع بعاصفةٍ من التشكيك

والانتقاد، إلا أن رئيس القسم أخبر المنتقدين أن أمامهم أسبوعين للرفع بانتقاداتهم ومقترحاتهم، وإلا سوف يتم الرفْعُ بها للكلية، مرَّ الأسبوعان وكأنهما سنتان وحيث لم يتقدمْ أحد بأي شيء رُفع المشروع لمجلس الكلية، والذي أحاله للدراسات العليا، والتي راجعتْه، واستشارت بعض الزملاء الذين رأوا أن التسمية غير صحيحة، فهي زمالة أذن وليستْ زمالة أعصاب الأذن؛ بحجة أن أورام الأذن ليستْ في صميم الزمالة، راسلتُ خبراء غربيين لكي يُثْبِتُوا للمجلس أن هذا التشكيك غير صحيح، وعندها تم الرفع للجامعة لإقرار الزمالة.

تم إقرار الزمالة رسميّاً بعد سنتين من المتابعة والتأجيل والطلبات التي لا تنتهي، لكنها كانتْ وقتاً قياسيّاً، فقَدْ رُفِعَتْ مع هذه الزمالة زمالة أخرى من القسم في نفس الوقت استغرقت الموافقة عليها ثمان سنوات، كان الفارقُ الوحيد بيننا المتابعة المستميتة مني نحو هذا الأجر الكبير، والحلم العظيم لبلدي الغالية.

كانتْ هذه السنتان بمثابة دورة مكثفة في تعلم الأنظمة والبيروقراطية لحديث عهد مثلي، ولستُ مُبالِغاً لو قلت: إنَّ هذه الدورة تُضاهي الزمالة الكندية في صعوبتها، وكان إقرارُ الزمالة من الجامعة هو بداية التحدي الصعب في مصداقية ما كُتِبَ فيها، والتي قوبلتْ بالرفض والتشكيك والتحدي من بعض الزملاء في القسم مرة أخرى، والتي قابلها بركانٌ واحد متفجر لا يقبل إلا أن يحرق كل ما يقف في طريقه لإثبات هذه المصداقية! لم أكُنْ لأدَع هذا الحلم ليَتَبَخَّرَ لأي سبب، ومهما كانت التضحيات،

وكان الجميعُ يعلم أن هذه الزمالة خط أحمر لا يقبل التشكيك ولا التفكيك ولا المساومات.

أرسلتُ خطاباً للهيئة السعودية للتخصصات الصحية بطلب الاعتراف بها، إلا أن المجلس العلمي رفض لأسبابٍ تكرر علىَّ سَماعُها في قسمي، فتجاوزتُ المجلس العلمي، ودخلت على أمين الهيئة السعودية للتخصصات الصحية الذي أخبرني أنَّ جميع شهادات الجامعات مُعْتَرَف بها في الهيئة، فطلبتُ منه أن يكتبَ هذا خطيّاً لكي أسهل لخريجي هذه الزمالة معادلةَ شهاداتهم بعد تخرجهم، فكان لي ما طلبتُ، وللّه الحمد.

بعد النجاح الكبير لهذه الزمالة، والسمعة العالية لمخرجاتها، تسابق الجميع على حذْو خطاها بكل حذافيرها، وكانتْ سَعادتي لا توصف وَأنا أرى مَن كان يشكك فيها ويُحاربها بالأمس يقوم باقتفاء أثرها حذو القذة بالقذة، بل إن ما أسعدني أن هذه الزمالة الفتية قد رُسِمَتْ بدقة لكي يستفيدَ المتخرج منها بأفضل الشهادات المعترف بها، لهذا أصبح خريجُ هذه الزمالة ذا تقييم في مرجعه يَفُوق التقييم الذي حصلتُ عليه بالزمالة الكندية.

بعد أن قضيت ثمان سنوات رئيساً لهذه الزمالة، تَرَجَّلْتُ من هذا المنصب، وكلي يقين أن بمقدور هذه الزمالة أن تنجحَ وتُواصلَ تألقها من غير أن أكونَ رئيساً لها، وللّه الحمد أولاً وأخيراً.

دارت الأيامُ، وإذا بالهيئة السعودية للتخصصات الصحية تتقدَّم بطلب الانضمام لهذه الزمالة بأعضاء جددٍ، لكن هذا الطلب قوبل بالرفض مِن قِبَل القائمين عليها في جامعة الملك سعود، فصدى رفضها مِن قِبَل المجلس العلمي لم يخبُ في ذاكرة القائمين عليها، وتلك الأيام نداولها بين الناس.

أول الأوائل

بدأتْ زمالة الأذن وأعصاب الأذن بالطبيب العسكري د. مناحي القحطاني، هذا الطبيبُ السعودي تعلَّمْنا منه في هذه الزمالة أكثر مما تعلم منا، كان مثالاً مشرفاً للطبيب السعودي الذي شق طريق النجاح بكل جدارة واقتدارٍ بمجهودٍ شخصيٍّ يَصْعُب أن يكونَ لأحد الفضل في نجاحه، لم يكن طبيباً ولا جراحاً ولا ضابطاً فقط، بل عالماً فيزيائيّاً وفيلسوفاً منظراً، وباحثاً مبتكراً، ومتحدثاً جريئاً، ومحاوراً ملجماً، ومنازلاً عصيّاً.

كنتُ مسافراً معه وفي المطار قام أحد رجال الأمن بالسلام عليه والحفاوة به، ونسيني مع أن مواعيده كانتْ تحمل اسمي، نعم لقد أسر العديد من المرضى بتواضُعه وتفهمه وتقديره للجميع، بل قد كان على اتصال بهم مباشرة، وكأنه أحد أفراد العائلة، لم يكن المريضُ بأسعد حظّاً من الأطباء المتدربين الذين وجدوا في هذا الرجل الأب والمعلم والصديق، فتصارعوا فيما بينهم ليحظَوْا بفرصة التعلم منه.

فاز بالمركز الأول للأبحاث لمؤتمر الجمعية السعودية للأنف

والأذن والحنجرة، وكانتْ سُمعتُه في كل مكان، وتم الطلب منه قبل أن ينهي الزمالة بالانتقال من الخدمات العسكرية في الشمال للمستشفى العسكري في الرياض، وإنشاء برنامج لزراعة القوقعة، وكان جميع القائمين على هذه الزمالة في أسعد أيام حياتهم وهم يرون في كل عام تهافُت المستشفيات لخطبة أبناء الزمالة، وفيهم تحقق المثل المشهور: (اخطُبْ لبنتك ولا تخطبْ لابنك).

أرادتْ إدارة المستشفى العسكري الافتخار بهذا الإنجاز والإعلان عنه في أحد مؤتمراتها، وبحضور خبراء من خارج السعودية، وكان أحدُ هؤلاء الخبراء طبيباً كنديّاً تدربتُ تحت يديه على إجراء زراعة القوقعة، وكان المخططُ أن يقومَ هو بإجراء هذه العملية للتأكُّد من نجاحها كأول عملية زراعة قوقعة في المستشفيات العسكرية، دخلت العمليات وطلبتُ من أستاذي أن لا يجري العملية ويترك د. مناحي يجريها بنفسه، فكلي يقين أنه قادر على إجرائها بمفرده، وأننا في السعودية لا نحتاج إلى مساعدةٍ، بل نحتاج إلى تطوير.

أجرى الدكتور مناحي العملية في وقت قياسيٍّ، وكنت أنا والدكتور الكندي ضيوفَ شرف، فلم نُقَدِّمْ أي شيء، كان كلُّ هذا تحت بث مباشر صوت وصورة لمدير الخدمات الطبية ومدير المستشفى وكبار القيادات الطبية، وكان الدكتور مناحي في مكان لا يُحْسَدُ عليه، فكلُّ شيء تحت ملاحظة شديدةٍ من قيادات عسكرية طبية عُليا في المستشفى، ومنْ خبراء عالميين مع طاقم طبيٍّ لم يعهدْ على مِثْل هذه العمليات.

لقــد كان يوم عرس كبيــر لمملكتنا الغاليــة وتاريخ خالد يُسَــطّره أبناءٌ مخلصون لبلدهم، لقــد كنتُ فخوراً ببلدي وبرجالات المستشــفيات العســكرية، ولم أتمالكْ نفســي فــي أن أتَقَدَّم لهؤلاء القادة بالشــكر الجزيــل لما يُقَدِّمون من دعم لهذا البرنامج الفتي، وتصاغرتْ نفسي أمامهم، فلــم أجد بُــدّاً من الاعتــذار على وجودي في هــذا المكان، وطلبــت منهم الصفحَ عني، وكونــي ضيفاً ثقيلاً، إلا أنني لم أســتطع أن أتــركَ هذا المحفــل الكبير لبلــدي الغالية، دون أن أشــارك بشــيء بســيط، وهو الوقوف بجانب أخي العزيز د. مناحي القحطاني، وأدعو له وأُشَــجِّعه وأبارك له، إلاَّ أنَّ هذا الاعتذار مني قُوبل بالشكر والترحيب من رئيس الخدمات الطبية.

استرجاعاً للذاكرة حمدتُ اللّه وشكرتُه على نجاح العملية، فلــو فشــلتْ لا سَــمَح اللّه لكانــتْ وأداً لهــذا البرنامج في مَهْــده، ومُســاءلة لمن غَيَّر خطــة النجاح لهذا المشــروع بقيــام الطبيب الكندي بإجراء العملية، وعندها ســأكون أنا الرأس المدبر لهذا الفشــل، وسيُقال: إننا لَم نصلْ بعدُ في السعودية إلى تقديم هذه الخدمة الصعبة للمرضى، وقد غامرنا بصحة المريض، أو كما يقال: (إذا ســقط الجمَل كثُرَتْ سكاكينه)، وفي المقابل كنتُ على يقين مِن قدرةِ أول خريج لهذه الزمالة، بعد فضل اللّه وكرمه.

انضم الدكتور مناحي إلى أعضاء هيئة التدريس في زمالة الأذن، مما ميز هذه الزمالة، وزادها رونقاً وجمالاً، إلا أنه فاقم الصعاب والمشاق لمن يأتي بعده، فلم يرضَ أحد أن يكون أحد مخرجات هذه الزمالة، بأقل إبداعاً من هذا الرجل.

الدفعة الثانية

ثانـي طبيـب للزمالـة كان الدكتـور أحمـد العقربي، وهو رجـل واحـدٌ يُعـادل دفعـةً كاملـةً مـن الخريجيـن، ففـي سكونٍ مطبق يوجد مخزون استراتيجي من العلم والأدب والتفانّي، ناهيك عن الخجل العذري المرهف.

عندمـا أجرى أول عملية زراعة قوقعـة كان مكتئباً حزيناً، وكأنـه قَتَـل بالخطـأ أَعَـزَّ أصدقائـه، كنـتُ بجانبـه أُعَزِّيـة وأطمئنـه وأجبر بخاطرة، وإن كانـت العبرات تخنقني من شـدة الفرح أننا نزف استشـاريّاً جديداً إلى معركة السمع والصمم.

عصفـتْ بـه رياح كثيـرةٌ، فهو مِـن خريجي مدينـة (أبها)، والعديدُ من الزملاء في الرياض غريبون عليه، والمستشفى برمتـه مختلفٌ، بل حتـى غرفة العمليـات وأجهزتها، كان الدكتـور مناحي يرغب في إجراء العديد من عمليات زراعة القوقعـة لدينا، وفي المقابل كان الدكتور أحمد شـغوفاً بإجـراء هذه العمليات، ولا يود أن تفوته الفرصة في القيام بها، والتمرس عليها.

انقلـب هـذا الحَمَـلُ الوديـع إلى ليـث ثائر يـودُّ أن يصقل مهارته في خدمة الوطن والمرضى فيّ أسـرع وقت، وكان شعوراً جياشاً أن أرى هذا الحرص والحماس بين الإخوة.

كان للدكتـور أحمـد العقربـي الفضل بجعل السـعودية أول دولة في الشـرق الأوسـط تقـوم بإجراء عمليـة زراعة السـماعة الاهتزازيـة، والتي تكللـتْ بالنجـاح وللّه الحمد،

وظهر الدكتور أحمد في العديد من البرامج التلفزيونية متحدثاً عن هذا الإنجاز؛ فأصبح علماً في رأسه نارٌ.

أنهى د. أحمد الزمالة، وتَسَلَّم الشهادة بمُفرده من معالي مدير جامعة الملك سعود في مكتبه، والذي كان فخوراً بهذا الاستشاري، وبالزمالة التي سقلت مواهبه، تَوَجَّه إلى المستشفى العسكري في الخميس بعد أن رفض كل خطوبة من مستشفيات عدة، ومنها مراكز خاصة اتصلتْ عليَّ تطلب مني أن أشفعَ لها بالزواج بهذا العريس.

ذهبتُ إليه عند قيامه بأول عملية زراعة قوقعة في المنطقة الجنوبية، وكم كانتْ فرحتي كبيرةً برؤية مدير المستشفى الذي قابَلْتُه أول مرة وآخر مرة في كندا قبل عشر سنوات بالصدفة وفي المطار، وبعد تعارف لدقائق سافرنا مباشرة لمدة يومين في ولاة البرتا الكندية، قطعنا فيها ثلاثة آلاف كيلو، وكانتْ صدفةً خير من ألف ميعاد، وبعد الحفاوة بهذا الإنجاز الوطني، غادرتُ بعد أن تشبع الجميع بأهمية زراعة القوقعة.

لَم يصنع د. أحمد تاريخَ زراعة القوقعة فحسبُ، بل أصبح مرجعَ المنطقة الجنوبية في جميع مشاكل الأذن من صغيرها لكبيرها، كما أصبح رئيساً للقسم ومديراً للتدريب وعضوَ مجلس إدارة الجمعية السعودية للأنف والأذن والحنجرة لدورتين متتاليتين.

ليس بكامل

كان الأولُ علــى دفعته، وكان الطبيــبَ المثالي، ولَم يكن طموحاً في شــرف مروم بأقل من النجوم، تقدم إلى زمالة الأذن مع عشــرة استشارِيين في المقابلة الشخصية، فلم يكــن ليُحالفهــم الحظ أمام هــذه الهامة الشــامخة. كان مبتعــث من الشــؤون الصحية في منطقــة جازان، وأنهى الزمالة في الرياض؛ إنه الدكتور إبراهيم شامي.

تبعاً لحقيقة أن البشر جميعاً ناقصين، فيجب أن يكونَ د. شامي ناقصاً في شيء ما، وهذا الشيء لم يكتشفْهُ أحدٌ بعدُ، لن أكون مغامراً لو راهنتُ بنصف ما لديَّ مع من يجد أي شيء ينقص مِن كمال هذا الرجل!

للدكتور إبراهيم شامي كلُّ الفضل في تسجيل أول حالة زراعة لســماعة الهجين في الشرق الأوســط في مملكتنا الغالية، وهي ســماعةٌ تجمع بين زراعة القوقعة والسماعة التقليديــة للمرضــى المصابيــن بالصمــم فــي التــرددات العليــا، بينمــا الترددات المنخفضة ما زال سَــمْعُهم فيها يستفيد مِن السماعات التقليدية.

قضى ســنتين جميلتيــن معنا، وقبل أن تنتهــي الزمالةُ خطفتْــهُ مدينــة الملــك فهد الطبيــة في مدينــة الرياض ليــرأس برنامجهــا الفتــي فــي زراعــة القوقعــة، وتم نقل خدماتــه من جازان للرياض بموافقة وزير الصحة، فلم تكن الشؤون الصحية في جازان لتتخلى عنه بسهولة.

ذهب بعد أنْ أنهى الزمالة الدقيقة معنا لأكبر مركز في العالم متخصص في جراحات قاع الدماغ الجانبية، وقد تَمَكَّن خلال فترة وجيزة من إثبات ما يتمتع به من مهاراتٍ متميزةٍ فاقتْ أقرانه، مما مَكَّنَهُ من إجراء العديد من العمليات المتقدمة والصعبة، ورجع للوطن بشهادة تفتخر به أكثر من افتخاره بها.

انضم الدكتور إبراهيم إلى أساتذة هذه الزمالة، وأكمل العقد الثمين الذي تجملتْ به مملكتنا الغالية، لتصبح زمالة التخصص الدقيق لدينا تشمل الأذن وأعصاب الأذن وقاع الجمجمة الجانبي والوحيدة في الشرق الأوسط التي تُنازع الصدارة مع أعرق البرامج العالمية وبأيدٍ سعودية.

إنَّ خيرَ مَن استأجرتَ القوي الأمين، إذا أراد أن يرى أحدٌ هذا في عصرنا الحاضر بأم عينه، فسيجده في هذا الرجل، مع ابتسامة مشرقة، وعذوبة روح ونقاش مفعم بالسرور، تخرج منه منتصراً، مع أن رأيك لم يُؤْخَذ به، فقد جانبه الصواب أمام قوة رأي هذا الأمين.

دخلتُ معه المتحف الوطني في القاهرة مع مرشد سياحي حامل للدكتوراه، كان يتصبب عرقاً من أسئلة دقيقة في تاريخ الفراعنة من د. شامي، دقائق معدودة تقضيها مع هذا الرجل تنبئُك بمقدار ما يمتلك من علم في جميع نواحي الحياة، مع عُمْقٍ وبُعد نظَرٍ، تخالني بجانبه طالباً مع أستاذه، فكل جُملي معه بصيغة سؤالٍ.

الربيع الطلق

أتـاك الربيعُ الطَّلْقُ يَخْتالُ ضاحِكاً = مِنَ الحُسْـنِ حتى كاد أنْ يَتَكَلّما

إذا كان النُّطقُ من فضة، فالسـكوتُ عند د. ربيع الجوفي من ذهب، عندما تختلط الحكمة اليمانية والكرم الشمالي، ترى العين رجلاً واحداً هو د. ربيع الجوفي.

عندمـا رجعتُ مِـن كندا كنتُ أراه سـاكتاً، عندما كان في زمالة الأنف والأذن والحنجرة، ولم أكن أعرفه ولا حتى حافظاً لاسمه، إلا أن مدير التدريب الذي سبقني أخبرني أن هنالك طبيباً في سـنته الثالثة يفوق مسـتواه من يسـبقه في سـنتهم الخامسة والأخيرة في هذه الزمالة. لن يكونَ مِن الصعـب عليكم أن تعرفـوا من كان يقصد، نعم لقد كان هو د. ربيع الجوفي!

أعجبـتُ بـه أيما إعجـاب، وخطبتُـه لزمالـة الأذن، إلا أنه آثر الرجوع إلى أهله وأحبته في الجوف.

دارت الأيـامُ، وإذا به يتقدم لهـذه الزمالة خاطباً، ولم يكنْ أحدٌ ليَتَرَدَّد في قبوله في لجنة المقابلات، فمَن يسـتطيع مجـاراة الربيع وجماله، وعبقة وكمالـه! أنهى الدكتور ربيع الزمالـة، ورفض كل العـروض من المستشـفيات، وتوجه بـأول طائـرة إلـى الجـوف ليبـدأ برنامجـاً متكامـلاً يخدم المنطقة الشمالية برُمَّتِها.

كان لهذا الرجل الفضلُ في انطلاقة برنامج زراعة سماعات جـذع الدماغ في مملكتنـا الغالية، فتعَبُـه ومتابعته ليل نهـار للمريض وتنسـيق الاجتماعات وتفكيـك المناعات – جعل الحلم حقيقةً، وفند كل الشائعات.

تعلمـتُ من هـذا الصديق كيف تكون مبدعـاً في صمتٍ، وعالماً في سـمت! لدى الدكتور ربيع أنامل رسـام، وناحتٍ فنان، وقد سجلتُ بالفيديو مقطعاً له وهو يجري العملية أقدمـه فـي محاضراتي عـن إجراء عمليـة زراعـة القوقعة بلمسات سِحْريَّة.

نشـرتُ مع الدكتور ربيع أفضل أبحاثـي في أرقى المجلات العلميـة، وبأفـكار إبداعيـة، ومنها تركيـب معالج الكلام للمريض في اليوم التالي لإجراء العملية، لم يسـبقنا أحدٌ إلـى هـذا الإنجـاز، فالجميع مـا زال يلبس المريـض معالج الـكلام بعد العملية بشـهر، بدون أي تفسـير مقنع، غير أننا وجدنا آباءنا على ملة، وإنا على آثارهم مُقْتَدُون.

ذهـب الدكتورُ ربيع إلى إيطاليـا كبقية الخريجين؛ ليُكْمِل تدريبـه في عمليات قاع الجمجمة، وها هو الآن يشـمر عن ساعديه في خدمة المرضى في شمال المملكة.

الرجل المبارك

إذا أردتَ أن تتبـارك، وتـرى رجـلاً مبـاركاً، فلن تجـدَ مَن هو أفضل من د. حسـن الشـهري، ولو طال بـي العمر لألفْتُ مجلدات عن الكرامـات التي رأيتُها بأم عيني لهذا الرجل، ولم أكن لأصدقها لو سمعتُها مِن أصدق صديق!

مما يسعدك بهذا الرجل أنك لا تسمع حرف (لا) في كلامه، فكل شيء نعم، وفيه يصدق القول: لولا الشهادتان لكانتْ لاؤه نعم! كنتُ مُتيقناً أن كراماته ليس لها حدودٌ، لهذا هي لا تقبل الرفض.

كعادة جميع أطباء الزمالة يسند إليهم رئاسة دورة تشريح عظمة الصدغ لتدريب أطباء الزمالة، وفي العام الذي كان الدور عليه جاءنا ثمانية خبراء عالمين يتسابقون، وكنا في كل عام نلهث خلف خبيرين يحضران بطلوع الروح.

شارك الدكتورُ حسن في مجلس إدارة الجمعية السعودية للأنف والأذن والحنجرة، ولم يكن عضواً منتخباً معهم، وفي المقابل كانت أعمالُه في كفة، وأعمالُ أعضاء مجلس الإدارة التسعة في كفة لم ترجحْ يوماً على كفته، فلم يتخلف عن اجتماع واحدٍ، وأوكل إليه كل المهام لتيقنَ الجميع من الكمال والتمام عندما يقوم بها هذا الهُمامُ.

بعد أن أنهى الزمالة لم يكن ليُترك دون أن يتعهدَ بقبول خِطبة الجامعة له، وليكون بجانب مَن أحبهم وأحبوه، بعد ذلك ذهب إلى مركزٍ عالميٍّ مع خبراء كبار، وإذا بهم يعشقونه، ويُقطعن أيدهم في العمليات مِن حُسن أخلاقه وخلقه.

مما يتميز به د. حسن الشهري: خِفَّة الظل والمزح المحبب والمقالب الممتعة، فلن تسلمَ يوماً من خدعة، وإذا سلمتَ يوماً فسوف تتضاعف عليك المفاجآت اليوم الذي يليه، فقد اشترى أحد الزملاء تماثيل من مصر فلم يتركه، وقال له: سيسجل التاريخ أنك مَن أدخل الأوثان إلى جزيرة العرب في العصر الحديث.

لهذا الرجل إبداعاتٌ في كل شيء، فهو المرجعُ الأساسي في الحاسب الآلي والجوالات والبرامج، ولم يَعُدْ أحدٌ منا يعاني من تجمُّد جهازه ولا تعطله، لقد أقنعنا جميعاً بشراء كمبيوترات جديدة في وقت واحدٍ لم نندم عليها جميعاً.

عندما أسافر لأي مؤتمر برفقة الأصدقاء، فإنني أتصيد المقعد المجاور له في الطائرة، بل أذهب معه إلى المطار، وأستسلم له في كل ما يقول، ويقترح وكلي يقين أني لا محالة سأتعطر بهذا الحامل للمسك. في كل سفرة لنا نجمع النقود، ونضعها مع هذا الرجل ليُصارفنا جميعاً بها، فنكتشف أننا قد استمتعنا بكل شيء، ولم يطلبْ منا أي دفعات أخرى، بل يخبرنا في سفرات تليها أن الصندوق ما زال عامراً من السفرة التي سبقتْها!. إذا لم تسافرْ يوماً مع د. حسن فلم تتذوقْ متعة السفر، فلله درك من حَسَنٍ في كل شيء.

المبتكر الصالح

لم أرَ في حياتي إنساناً اسمه صالح، إلا كان اسماً على مسمى، بل يكون مصلحاً مستصلحاً، فاعلٌ مُستفعلٌ فعولٌ، رزق اللّه زمالتنا بطبيب سعوديٍّ عسكري اسمه: صالح العمري، كان قد تخرَّج من زمالة المنطقة الغربية، ولم نعلمْ عنه الكثير، حتى جاء إلى المقابلة الشخصية، وكان فيها أطباء زائرون استغللنا وجودهم في اختيار أفضل المتقدمين، كان المتقدمون يتكلمون عن أبحاثهم، وكان صالح يتكلم عن براءات الاختراع، كانوا يتكلمون عن

نجاحاتهم، وكان يتكلم هو عن تفوقه، كانوا يتكلمون عن انضباطهم، وكان هو يتكلم عن دِقَّته.

إن أحببتَ أن تستشرف المستقبل من رجال ثقات، فيكفيك أن تستمع للدكتور صالح العمري، مُجالَسة هذا الرجل لدقائقَ تكفيك في رسم خطط مستقبلية لأي مشروع، وكأنه قد مَرَّ بهذه التجربة عشرات المرات ذهاباً وإياباً، وإذا قال: لا أعلم، فليس لأنه لا يعلم، بقدر أنه لا يضمن أن تكونَ نصيحته كافية وشافية ولغيرها نافية.

تَمَكَّن هذا الطبيب من تسجيل براءة اختراع للسعودية هي الأولى في تخصص الأذن، كان هذا باباً مفتوحاً على مصراعيه لكل طبيبٍ يأمل في تسجيل براءة اختراع، فناموس الاختراعات لديه قادر لا محالة على تلبُّس من يجالسه.

تواضُع وسكوتُ الدكتور صالح قد يخدع من يلمحه للوهلة الأولى بحداثة سنِّه، ولكن لا يلبث أن يشعرك بتزلزل الأرض من تحت أقدامك في أول نقاش علمي، ليثبت لك أن للحقيقة وجوهاً أخرى، تستوجب النظر إليها بتمعن وحصافة، لكي تكون نقيةً مِن كل الشوائب.

كنتُ أمدح الدكتور صالحاً في غيابه أمام أحد الزملاء وإذا بهذا الزميل يستكثر ما قلت في هذا الطبيب، وشاءت الأقدار أن تصلني رسالة جوال بالصورة للدكتور صالح، وقد فاز بالمركز الأول وبالميدالية الذهبية في سباق براءات الاختراع الأوروبية.

اخترع الدكتورُ صالح طريقةً مميزة لزراعة القوقعة تُسَهِّل هـذه العمليـة في بعض الحـالات الصعبة، لقـد كان هذا الطبيـبُ مجال إلهام لي في العديد من الأفكار والإنجازات والابتكارات، لقد أثبتَ لي بما لا يدع مجالاً للشـك أن جميع الأطبـاء السـعوديين قادرون على تجاوُز خط المسـتحيل بـكل عقلانيـة وأمـان، يحتاجـون فقـط لمـن يُسـاندهم ويُشجعهم، أو بأقل تَقدير رفع الوصاية والمساوَمة لهم.

كلي يقين أن المستقبل القريب – بإذن اللّه – سيُثبت أن هذا الرجل ثروة وطنية لا يسـتهان بها من الإبداع والتميز والابتـكار والعالمية، مفصل حقيقي سـيغير مجرى تاريخ الطب.

الطبيبة السعودية

سَـطَّرتْ جميـع الطبيبات السـعوديات تاريـخ الطب بحبر من ذهب، لَم يسـجل التاريـخ أن طبيبةً سـعوديةً دَخَلَتْ معترك المستشفيات، إلا كانتْ مُساوية للرجل، لقد كانتْ وما زالتْ وستظل بإذن اللّه الطبيةُ السعودية مصدر فخر واعتزاز وثقة، بل تحدٍّ للطبيب السـعودي أن يصل إلى ما وصلتْ هي إليه!

كانت الدكتـورة فداء المهوس من الأوائـل على دفعتْها في كلية الطب، ولم ترضَ أن تتنازل بهذا المعدل العالي للتخصصـات الطبيـة المريحـة، ولا للمستشـفيات ذات الرواتـب الأفضـل والالتزامات الأقـل، والواجبـات الأخف، بل اختـارت الجامعـة وأي جامعـة؟ جامعـة الملك سـعود، أم الجامعات.

بعـد أن أنهـت الزمالة في السـعودية، قادهـا الطموح أن تكونَ شـقيقة الرجال الذين سـبقوها في زمالة الأذن، لم تَمُـرَّ هذه الرغبـة بدون تحديات، فالقسـمُ الجامعي لا يودُّ كسـر قانون التخصص الدقيق من الخارج، مع تيقنهم أن زمالتنا تتفوق على أفضل الزمالات العالمية عدة وعتاداً، ولا ينازلها عاقل، كان التقدُّم لهذا التخصص الدقيق ينْحَصر بيـن الأطبـاء، لكن فـي مقابلة السـنة التي تلـي قبولها تقـدم العديد مـن الطبيبات لهذا التخصـص، لقد كانتْ دافعـاً قويّاً لتقدم العديد منهنَّ لهذا التخصص الصعب جملةً وتفصيلاً.

رأسـت الدكتورة فـداء اليـوم الأول لمركـز الملك عبدالله التخصصي للأبحاث ومؤتمر قسـمنا الخامس والعشـرين للمسـتجدات فـي الأنـف والأذن والحنجرة، ودورة تشـريح الأذن، كما شـاركتْ في العديد من المؤتمرات الدولية في السعودية وخارجها، وحضرتُ لها تقديماً في مؤتمر دوليٍّ عـن زراعة القوقعة، ولـم أَكُنْ لأُصَدِّق كثـرة التصفيق لها بعد انتهائها من التقديم، وردها المفحم لكل الأسئلة!

أشرفت الدكتورة فداء على العديد من أبحاث أطباء الزمالة، وفـاز بحثُهـا بجائزة القسـم الأولى لِلأبحاث على مسـتوى الزمالات الدقيقة، وكذلـك فاز بحثُ إحدى المتدربات الذين أشرفت على أبحاثهم بجائزة المركز الأول.

كما قامت الدكتورةُ فداء بدورة تدريبية مُطَوَّلة في دراسة جينات السـمع في أعرق المراكز العالميّة في هذا المجال، وبـإذن اللّه سـيُعَوَّل عليها اسـتقطاب المتخصصين في

هـذا المجـال، وتوفير خدمة طبيـة جديـدة للمرضى في معرفة أسباب الإصابة بضعف السمع، وإمكانية الاكتشاف والتدخُّـل المبكّـر، بالإضافة إلى تقديـم النُّصح والتثقيف للعوائل التي تنتشر فيها هذه الإعاقة.

هـذه الطبيبةُ السـعوديةُ سـتكون إضافة كبيـرةً لمركز الملـك عبـدالله التخصصـي لـلأذن، بمهارتهـا الجراحيـة والعلميـة والتعليميـة والبحثيـة والاستكشـافية، ومثالاً يقتدي به جميع الطبيبات السـعوديات، وواجهةً مشـرفة للمرأة السعودية أمام العالم بأَسْرِه.

ابن الصحابة

الاستشـاري الثامـن فـي هـذه الزمالة هـو الدكتـور ريان الحسـيني، طبيبٌ سـعوديٌّ، رأى الكواكب السـبعة فلم يقنـعْ بمـا دون النجـوم، وحيـث إنه مـن المدينـة المنورة فكان حريصاً كل الحرص على ألا تكونَ مدينة المصطفى عليـه الصلاة والسـلام بأقل من غيرها، لم تكـن المقابلة الشـخصية وإثبـات التميـز عـن بقيـة المتقدميـن بالأمر السهل، ففي هذا العام كان التنافُسُ على أشدِّه، والكل حضر بالعديد من التوصيات والشـفاعات والسـير الذاتية المتميـزة في الشـهادات والـدورات والأبحـاث، لكن يبقى القولُ الفصلُ لِلَّجنة التي أثبتتْ في كل عام مصداقيتها في اختيار الأفضَل.

مَن يجالس (ريان) يجد نفسـه أمام إنسـان بَشوش طوال الوقـت، لا تكاد الابتسـامة تفـارق مُحياه البهي؛ تجسـيداً لحديث المصطفى صلى اللّه عليه وسـلم: ((تبسُّمُك في

وجـه أخيك صدقة))! عبر العصور لـم يتغيرْ أهل المدينة؛ بطيبهـم، وكرمهـم، ومصداقيتهـم، وكأن صحابـة المصطفى عليه الصلاة والسلام لم يزالوا على قيد الحياة.

كان شـغوفاً بالمعرفـة والاطِّـلاع وإثبات جدارتـه بالقبول في هـذه الزمالة، مـن هوايات هذا الطبيـب التصوير، بل ويُقـدِّم دورات تدريبيـة لهـذه المهـارة، استشـرتُه فـي صـور توضيحية لكتاب الطـب الذي ألَّفْتُه مـع نخبة أطباء الأنـف والأذن والحنجـرة لطلبة الطب، ولـم أتَنَبَّه لصعوبة الرسومات التوضيحية، وصُعِقْتُ بقيمتها التي تصل لألف ريال للصـورة الواحدة، ومدةَ أسـابيع للانتهاء منها، فقام هـذا المبـدعُ بتزويدي بعشـرات الصـور في غايـة الجمال وبالمجان وخلال أسبوع واحدٍ.

خطيـت هذا السـطور عنه، وهـو في بدايته فـي الزمالة، فلم تسـنحْ لـي الفرصة في كتابة إنجازاتـه، مع يقيني أنه لـن يكونَ أقلَّ من الذين سـبقوه، فهذا الشِّـبْلُ من تلك الأسود.

حكم قوقعية

"الأقارب عقارب"

يُضْرَبُ هذا المثلُ للتهديد من الاقتران بمن هو قريب في النسب أو المسكن، ويُرَدِّدها البعض للحثِّ على الزواج بمجتمع أبعد، ومنهم مَن ينظر لها من جهة طبية، فزواجُ الأقارب يجعل نسبة الإصابة بالأمراض الوراثية النادرة عالية، وقد يكون في العائلة الواحدة أكثر من طفل مصابٍ بمرض وراثي، مما ينهك العائلة، أو يجعلها تَتَرَدَّد في الإنجاب.

في المقابل يبحث كلُّ إنسان عن شريك حياة يعيش معه باقي عمره، في ودٍّ وسعادة وتفاهُم، لهذا يبحث الأصم عن أقرب الناس إليه، فَهُمَ أكثر تفهماً له ولاحتياجاته، أضف إلى هذا أن الأم في كلا الطرفين هي من يَعُد العدة لهذه العلاقة، فهي أكثر مخلوق يتفهم لاحتياجات فلذة كبدها؛ لهذا تبحث الأم عن أقصر الطرق، وبهذا ينتهي الزواج في السعودية بزواج الأقارب، ناهيك عن نظرة كل قبيلة، بل قرية، بل أسرة إلى أنها الأفضل، ويتوجب عليها حماية عرقها السامي وأرضها الثمينة من الغرباء، ولو كانوا من القرية المجاوِرَة.

هذا التقوقُع الأسري أدى إلى بروز أمراض وراثية كثيرةٍ في المجتمع السعودي، والتي – وللّه الحمد – تم الحد منها

بتطبيـق فَحْص مـا قبل الزواج، وكلنا أمـل أن يتمَّ إضافة فحـص جينات ضعف السـمع بعـد اكتشـافها إلى قائمة اختبارات ما قبل الزواج، حيث إنَّ زواج الأقارب في السعودية يصـل إلى ٥٠٪، وهذا يجعل انتشـار ضعف السـمع كبيراً جدّاً؛ لهذا قد لا تخلو أسـرة سعودية فيها طفل أصم من وجـود أقربـاء لهم لديهم نفـس الإصابة، بينمـا ٩٠ ٪ من الأسـر في المجتمعـات الغربية ليس لديهـا تاريخٌ مرضي مشابه.

دعونا نأخذ الموضوع من منظور المعاق سمعيّاً، فهو يرى أن هذه ليستْ إعاقة، وأن بمقدور أبنائه العيش مثله، وفي المقابل هو يرغب في العيش مع إنسـانٍ يُشاطره الأفكار والثقافة، ويسـهل تواصله معه وتفهمه له وللغته، فهل من المتوقع أن يستطيعَ الإنسانُ العيش مع شريك حياته بلغـة وثقافـة لا يتقنها؟ مهما وصل مـن التعلُّم والإتقان فلـن يكـونَ بمِثْل من تشـرَّب هـذه اللغـة والثقافة منذ نُعومـة أظفـاره، كما أن العلاقة المتينـة بين أفراد مجتمع الصـم قـد لا يُماثلهـا أي قوة، لهذا ليس من المسـتغرب أن يبحثَ الإنسـانُ عن أوثق العرى للترابُط بين البشر عند اختياره لشـريك حياته، كمـا أن الوالدين يبحثون لأبنائهم عن الاستقرار الأسري قبل كل شيءٍ.

من الذين دعوا إلى عدم زواج ضعاف السمع من بعضهم البعض مكتشفُ الهاتف قراهام، بل والذي يُعَدُّ أحد أكبر النازيين في مجتمع الصم، فقد كان من أشاوس المحاربين للغـة الإشـارة، وفي المقابل يرى العديد من الراشـدين أن تتوفـر كل الخيارات مـع التثقيف الكامـل للجميع، ويترك

لكل إنسان حرية الاختيار، فمَنْ أراد أن يتزوجَ أقرب الناس إليه ولو كان كلاهما أصمَّ، فله ذلك، وإن أحب أن يقوم يعمل اختبار للجينات للتأكد من عدم إصابة أطفالهم بالصمم، فله ذلك.

لا توائم في عين الأم

من الحقائق المُسَلَّم بها أن الأم لا ترى شبهاً بين أبنائها التوءم، ولو بلغا من التشابه ما يصعب على الأب أن يُمَيِّزَه، نعم هذا ليس مستغرباً، فبقدر ما تقضي الأم الساعات الطوال مع توءميها بقدر ما تكتشف الفرق الشاسع بينهما، والذي من المستحيل أن يلتبسَا عليها، على عكس هذا يرى البعض – وأنا منهم – التطابق الكبير بين شعب كامل، كالصينيين مثلاً، فلا يكاد يميزهم إلا من باب العمر (طفل أم كهل)، والجنس (ذكر أم أنثى)!

لو سلمتَ معي بهذه الحقيقة، فما علاقة زراعة القوقعة بهذا المثال؟

هذا ما أكرمنا الله به من نعمة في اكتشاف أدق التفاصيل في زراعة القوقعة بين المرضى، ولن أكون مبالغاً لو قلت: إننا نرى الاختلاف الكبير بين أذني المريض الواحد كالأم مع توءميها.

يَصل جرَّاح القوقعة إلى مستوى الأُمِّ بمَلَكة اكتسبها، من كثرة ما يقوم به من عمليات جَعَلَتْهُ لا يرى أي شبه بين أذنين، بل حتى انعدام الشبه بين الأذنين في المريض الواحد، مما يجعل الجراح أكثر تشوقاً لإجراء المزيد والمزيد

من العمليات؛ ليكتشفَ في كل مرة أنه كان يجهل الكثير والكثير من أسرار الأذن، ويجعله في شوقٍ لاكتشاف المزيد مـن الفُروقات الدقيقة وطـرُق التعامل معها، كما أن هذا التَّكرار يجعل الجراح أمام منجم كبير من المعلومات التي تُؤَهِّله لاستثمار هذا المنجم فيَّ الأبحاث والتعليم وبراءات الاختراع، بل يسـتقطب العديد من الباحثين والمهتمين إلـى الحضور إلى هـذا المركز للتعلـم والتدريب، ويجعل المريض يثق ثقةً عمياء بهذا المركز.

هـذه الميـزةُ هـي ما يدفـع الجَرَّاحيـن لإجـراء العديد من العمليـات، ويرفـع عنهـم الملـل مـن تكـرار العملية في كل مـرة بنفـس الوتيرة، لدرجـة أن البعـضَ يتَّهم هؤلاء الجراحيـن جُزافاً أنهم لا يتقنـون إلا هذه الصنعة، مع هذا التدقيق اكتشـفنا طرقاً جديدةً للجراحة أكثر أمناً، وأسرع وقتـاً، بل قمنا باختراعاتٍ سُـجِّلَتْ كبـراءات، ومنها ما تَمَّ تصنيعُه.

في المقابـل ينظر الجراح المبتدئ لزراعة القوقعة وكأنها شـيء واحد، ولا تتميز عن بقية عمليات الأذن، وأن بمقدور أي جـراح القيـام بهـا، وأن جميـع المرضى متسـاوون في أمراضهم وعلاجهـم، فتراه يخلطُ الحابل بالنابل، وهذا ما يجعـل المريض يدفع ثمناً باهظاً عند إجراء هذه العملية، والتي من المفترض أن تبقى مدى الحياة، ولا تتقبَّل الجراح الهـاوي، بـل الجـراح المحتـرف، الذي يحسـب لكل شـيءٍ بسيطٍ ألفَ حساب!

أقــول هذا لأن بعض الجراحين يــرى أن رغبته في غور هذا المحيــط هو طوق الأمان له وللمريــض، ولا يعلم أنَّ بواخر ضخمة قد غرقتْ في أعماق هذه المحيطات.

حشو كراعي

يحكي أحــد الإخوة: أنَّ رجلاً في قريتنــا الصغيرة كان يبيع نفس التمر في تنكات متشابهة بأسعار مختلفة، وعندما يســتغرب المشــتري بــأن التمر من نفس المــكان ونفس التاريخ وبنفس الحجم يقول له البائع: هذه الأعداد القليلة والغالية الســعر "حشو كراعي"؛ أي: إنه هو مَن قام بوضع التمــر في هذه التنكات والضغــط عليه بكراع قدمه حتى حشــا التمــر، بالمقابل بقية التنــكات قد حشــاها الرقيق في ذلــك الوقت، وهو مــا اعتاد عليه الجميــع، ناهيك عن النظافة والمهارة، فاختياره للتمر الأجود قبل أن يحشيه لا يخلو من الخبرة.

لَم يكن هذا المثال يغيب عن لســاني يوماً، وانتشر بين زملائي انتشــار النار في الهشــيم، والمضحــكُ أنني كنتُ يومــاً مَدْعُــوّاً عنــد أحد الزملاء، فســأل ســائل عــن مغزى هــذا المثل، فقام أحد الحضور وقال: هو الشــيء النظيف المتميز، ومن ثم ســأل عن ســبب التســمية؟ فقال له أبو العريف: إنه من حشــو الأكل بالكراعين فتغدو جميلة، ولا أدري هل كان الســائل مقتنعاً بالإجابة، أو إنه هزَّ رأسه من باب المجاملــة، إلا أنني أخبرته بالقصــة القديمة، ولكن لم يَرُقْ لصاحبي أن شــكك في إجابته، فبينما نحن مختلفان قال المضيف: هذا وقت لا يختلف فيه اثنان، فالعشاءُ جاهز

بدون كراعين والتمرية للحلا حشـو كراعي مجازاً، وليست حقيقة، وبهذا فهم السائلُ الجواب!

كنتُ أردِّد لمن يقوم بعمل متميز حشو كراعي، بل أصبح المثال أداة اسـتفهام للتأكد من أن كل شيء على أكمل وجـه، وذلك بالقول: بشـر كيف؟ حشـو كراعـي؟ فتكون الإجابة: نعم حشـو كراعي، وهي ما تعني المهارة والدقة والنظافة.

هذه المداعباتُ بين الأطباء هي ما يكسـر حاجز الطبقية بين الأستاذ وتلميذه، ويجعله يستمتع بالعمل، ويرفع عن عاتقه الخوف أو الاستنقاص، فالشيطانُ يجري من ابن آدم مجرى الدَّم.

أزهد الناس في الشيء أقربهم إليه

الزُّهـدُ صفـةٌ حميدةٌ فـي مجملهـا، ولكن الزهد فـي الخير مذمَّة، كنـا نرأف بحال العديد من المرضـى الذين يأتون من خارج الرياض بشـكل أسـبوعي، لكي يؤهلوا أبناءهم، وفي المقابـل نجـد التأخيـر والتكاسـل مـن المرضى مـن داخل المدينة.

كنـا فـي بدايـة البرنامج نشـدِّد علـى أهـل المريض في المتابعـة بشـكل دوريٍّ، وعـدم التقاعـس عـن الحضور، لدرجـة أن البعـض اقترح عـدم الزراعة للمرضـى من خارج الريـاض، حتى يقومـوا بالانتقـال لهذه المدينـة، وبالقرب مـن المستشـفى! الغريب في الأمر أننا بعد دراسـة نتائج الزراعـة وجدنـا أن الزراعة لمـن هم خارج مدينـة الرياض لا

تقــل عن الموجوديــن فيها، بل كان البعــض يأتي بنتائج أفضل من المتوقع، وكان التفسيرُ لهذه الظاهرة الغريبة هي تقاعُس القريبيــن من المركز وزهدهم في المتابعة، والحمــد للّه أن النتائج لم تكــن بتوصيات، وإلا قد يخرج لنا من يقترح الزراعة فقط لمن هم خارج المنطقة.

مــا يؤكِّــد هــذه النظريــة أن المرضى مــن خــارج الرياض لا يَتَرَدَّدون لبرهة في القدوم إلى المركز في أي فرصة تَسْنَحُ لهــم للمُضِــيِّ قُدُماً في زراعة القوقعــة؛ حيث لا يخلو يوم مــن أيام العمليات مــن تأجيل لبعض المرضــى الذين لم يحالفهم الحظ؛ بســبب مرض أو عــارض، مما يجعلنا على أهبة الاســتعداد في إيجاد البَديل، فوقْــت العملية فرصة ثمينــة لا تُعَــوَّض، ومن المســتغرب أن المرضــى من خارج الرياض أسرع استجابةً لهذا النداء!

يداك تلف بحديد

عندما يُقال: يدك تلف بحديد، فمن البديهي أن يفهمَ من هذه المقولة أنك تستحق الأسر لما قمتَ به من عمل خارج عــن المعتــاد، حتى يتم الحكــم بالذنب أو البــراءة، ولكن الأغلبيــة ســتتوقع أن هنالك خطأ غير مقصــود، ويتصور أن المعنــى: يده تلف بحريــر كناية عن المهــارة والنظافة والدقة، وقد كنتُ أكرِّر هذا المثال لبعض مَن تعلم وأتقن زراعة القوقعة بتفوقه على أســتاذه بالقــول: (اليوم يداك تلــف بالحديد)، ومع التكــرار فإنه لن يتوقع أن هذه الجملة تكــررتْ بنفس الخطــأ، فما ألبث أن أقول لــه: لقد أصبحتَ مثلي أسيراً للقوقعة.

فـي الحقيقة هذه القوقعـةُ التي لا يتجـاوز حجمها أنملة الوليد قادرة على أسْـرِ أعتـل الجراحين، وقد يصدق فيها قول الشاعر مع شيءٍ من التصريف:

إنَّ القواقعَ إن يَطْرَأْ بها صَمَمٌ
قَتَلْنَنا ثم لَم يحيينَ قَتْلانا

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك له
وهن أضعف خلق اللّه أسماعا

نعـم بحـق يصل جـراح القوقعـة إلى شـيءٍ مـن الهيام بعمليـات القوقعـة، لدرجـة أن السـاعات الطِّوال التـي يقضيها مـع المريض في العيـادة والعمليـات تَمُرُّ كلمح البصـر، ومـن الجدير بالذِّكْـر هنا أن طبيـبَ التخدير غالباً ما يسـأل: متى من المتوقع أن تنتهي العملية لكي يعد العدة بوقت كافٍ لإفاقة المريض من البنج؟ فتكون الإجابة المعتـادة مـن الجراح: (عشـر دقائـق)، ومن خبـرة طبيب التخديـر مع كل جراح يعـرف الوقت المتبقـي بضرب هذا الوقـت فـي معامل كل جـراح، فمـن الجراحين مـا يكون معامـل الضرب له ثلاثة؛ أي: نـصف سـاعة، ومـن الجراحين مـا يكون هـذا المعامل عشـرة؛ أي: ما يقارب السـاعتين، إلا أن معامـل جراحـي القوقعـة يرفع إلى أس عشـرة، فلو قال: دقيقة، تصبح عشر دقائق، وإذا قال: دقيقتان، تصبح قرابة الساعتين، لهذا يمازح طبيب التخدير جراح القوقعة بصيغـة مختلفـة للسـؤال بقولـه: (هل بقي مـن الوقت دقيقة أم دقيقتين؟)

من الجميل تفهُّم الطاقم الطبي وإدارة المستشفى هذا

الحب، لكي يعذروا هذا الطبيب عندما يطالب بشيءٍ مختلف، فعلى سبيل المثال: يَصْعُب على مريض القوقعة الانتظار ستة أشهر لتخطيط السمع، وسنة لإجراء الأشعة، وسنتين لإجراء العملية، فهم في أَمَسِّ الحاجة لسرعة اتخاذ القرار، إما أن يزرع لهم أو لا!

صحيح أن جميع المرضى مواطنون، ولا يجوز التفرقة بينهم، ولكن ليس من المقبول طبيّاً أن يتأخر علاج مريض سرطان أو زراعة قوقعة لمدة عامين، لكي يتساوى مع بقية المرضى والذين بمقدورهم الذهاب إلى مستشفيات حكومية أخرى تقوم ببقية العمليات، ولم تتلطخ قفزاتهم بدماء القوقعة ولم تلتفّ أيديهم بحديدها.

يَضَع سره في أصغر قوقعته!

نعم يضع اللّه سِرَّهُ في أضعف قوقعة خلقها، وهذا مصداقُ حديث المصطفى عليه الصلاة والسلام: ((إِنَّما تُرْزَقُونَ وَتُنْصَرُونَ بِضُعَفَائِكُمْ))، فقد رأينا بأمِّ أعيننا كيف أن اللّه نصر العديد من مرضى ضعف السمع على العديد من الأمراض والصعاب، ودعوني أقصُّ لكم هذه القصة المتكررة في كل عملية، حيث إنَّ يوم عملياتي لزراعة القوقعة هو يوم الثلاثاء، وفي نفس اليوم تتوفر غرفتان لجراحي العيون، وخمس غرف للأنف والأذن والحنجرة، ولا يمكن أن يدخلَ أحدٌ غرفة غيره للتوسع، دون أن يأخذ الموافقات الطويلة والعريضة، وكأنه سيدخل دولةً أخرى.

تقدمتُ بطلب السماح لي بإجراء زراعة القوقعة في غرف عمليات العيون، بعد انتهائهم من عملياتهم، فجاءت المعجزةُ من قسم العيون بالموافقة، وفقط لإجراء زراعة القوقعة؛ حيث أنها من العمليات النظيفة التي لا تُؤَثِّر على نظافة غرف عمليات العيون بالغة النظافة. وحيث إنَّ هذا اليوم يوجد به خمس غرف لأطباء الأنف والأذن والحنجرة، فتراهم يتحاربون على إحدى الغرف التي غاب صاحبها لإجازة أو ألغيت عمليات له لأي سبب، ولكم أن تتصوروا من يحظى بهذا الفوز غالبًا؟ نعم جراح زراعة القوقعة.

كان هنالك نقاشٌ حادٌّ حول مَن له الأولوية على هذه الغرف بيني وبين رئيس القسم ومدير المستشفى، وكلاهما معي في يوم العمليات، وتخصصهما جراحة أورام الرأس والعنق، فمن المنطق أن مرضاهم – شفاهم اللّه – من كل الأورام أولى من زراعة القوقعة التي بمقدور المريض أن يعيشَ بسمع أو بدون سمع، كما أن منصبهما الإداري له كل الاحترام والتقدير، ناهيك عن توفر غرف العيون أحياناً لزراعة القوقعة.

كانت الإجابة مني بسيطة للغاية، وهي لكونهما مسؤولين، فأقترح عليهما مقابلة مرضى زراعة القوقعة، وإخبارهم بأولوية مرضاهم عليهم، وإذا اقتنع المريضُ فأنا على استعدادٍ أن أعطيهم غرفتي.

نعم بحقٍّ فمرضى زراعة القوقعة من أصعب المرضى تفهماً لحاجة غيرهم للعلاج، وهم يعدون الثواني انتظاراً لهذا الحلم أن يتحقق، وقد لا يدركون ما يدور خلف

الكواليس من صراعات بين الإخوة المتحابين كل هذا مِن أجلهم، نعم هؤلاء الأطباء إخوتنا وأحبتنا، ولكن غيرة كَل طبيب على مرضاه تُعمي قلبه عمَّن سواه، وهي مشابِهَة لقصة الأخوين اللَّذَيْن تقاضيَا في المحكمة أيهم يظفر بوالدته معه في المنزل ليبرها، وقد بلغ كل منهما من الكبر عتيًا!

نعم نبقى أحبة نحن الأطباء فيما بيننا، ونغبط بعضنا البعض على التفاني في بر مرضانا، مهما تصل المناظرات والتحديات والمنازلات فيما بيننا، فلو انتصر الواحد فرح لمرضاه، وإذا انهزم فرح لأخيه، وفي كل خير.

صَفّر بالقوقعة الخضراء

جَعْلتُ شعار زمالة تخصص الأذن وأعصاب الأذن: قوقعة خضراء ملتحمة بميدالية مفاتيح يقوم الممتحن الخارجي بإعطاء هذا الطبيب عند تخرجه، كنايةً عن أن القوقعة قد سمحتْ له بعبور أقطاب الزراعة على يديه، كما أنها قادرةٌ على التصفير لطلب النجدة عند الحاجة؛ كنايةً عن أن كل إنسانٍ مهما تمكن من أي شيءٍ لا يزال بحاجة إلى المساعدة.

في الحقيقة اخترتُ اللون الأخضر كنايةً عن علم بلدي الذي أراه أخضر في كل شيء في صحرائها؛ في بحرها، في صخرها، في أهلها، في جوها، في كل شيء هي خضراء.

سبق التحدُّث عن الأطباء السعوديين الذين تخرَّجوا من جامعة الملك سعود، وحصلوا على أعلى وسام شرف

فـي مهنتهم، وهي القوقعة الخضراء، بينما كان وسـام الشـرف الذي حصلتُ عليه من كنـدا عبارة عن ربطة عنق (كرفتـة)، ما زلـتُ أرتديها فـي أرقى المناسـبات العالمية، فهي تشـد الأنظار برسـومات القوقعة عليها، وكلي أمل ألا تقل عنها هذه القوقعة الخضراء في أعين حامِليها.

عندمـا أنهيـتُ الزمالة الكنديـة قلتُ لأسـتاذي: إنَّ جل ما أخـاف منه أن تواجهني زراعة صعبة، ولا أتمكَّن من القيام بهـا، ولـن يكون بمقدورك أن تسـعفني لبعد المسـافة، وتباين الوقت فيما بيننا، مع أنه في أقرب مدينة في كندا للسعودية، إلا أن فارق الوقت يصل إلى سبع ساعات، قلت لـه ممازحا: كلي يقين أنك لن تكون سـعيداً باتصالي بك فـي منتصـف الليل، فقـال بكلمات لا تخلو مـن المبالغة: (عندما تنتهي مـن هذه الزمالة فلن يكون بمقدور غيرك أن يقوم بشيء لا تستطيع القيام به)!

أمـا أبنائـي الأعزاء الذيـن تخرجوا من هـذه الزمالة، فأقول لهـم: لن أكـون أفضلَ منكم في إجراء أي شـيء يَصْعُب عليكم، ولكـن بمجرد تصفيركم بهذه القوقعة الخضراء سـأكون بـإذن اللّه بجانبكم، أتقاسـم أحزانكم، وأتشـاور معكم، فقط (صَفِّر بالقوقعة الخضراء).

زواج القوقعة كاثوليكي

نعـم زراعـة القوقعـة هـي زواج مـدى الحياة مثـل الزواج الكاثوليكـي، فلا طـلاق فيه! بل أكثر من هـذا، فالقوقعة المزروعـة تدفـن مـع الميت الـذي لا يدخل معـه في قبره

شيء آخر؛ لهذا ليس من المستغرب أن يكون لهذا الزواج واجبات وحقوق وطقوس وتبعات.

يأتي إلينا أحد الوالدين أو كلاهما راجياً أن نجري لابنهما زراعة قوقعة، فمنهم من يود التعلق بقشة في أي أمل يعيد السمع لابنه، ومنهم من يود أن يُكفر عن خطأ ارتكبه بعدم زراعة القوقعة لابنه مسبقاً، ومنهم من يود لابنه الزواج بمن يسمع، ومنهم من يود أن يخفي السماعة عن الغير، في المقابل تكون هذه الحالات قد تقدمتْ في العمر لدرجة يصعب معها الحصول على استفادة تقنع المريض بلبس معالج الكلام الخارجي للقوقعة.

تكون الإجابة الشافية لهؤلاء الآباء: هل تودون لابنكم أن يتزوجَ مِنْ أجل أن يرضى؟ أو من أجل أن يرضيكم؟ هل تودُّون أن يتزوجَ ابنكم وبعد شهر يطلق، ويقول لكم: تزوجتُ لأحقق لكم أمنياتكم لي بالزواج، فدعوني الآن أعيش حياتي، دعونا نسأله الآن: هل أنت ميت على زراعة القوقعة أم لا؟ إذا قال: لا، فهو طلاق بَيِّن مِنْ قَبْلِ الزواج.

نصيحةٌ لكل والدَيْن: ألا يجبروا أبناءهم على الزواج من القوقعة، فهذا القفصُ الذهبي في نظرهم قد يكون حكماً بالإعدام في نظر المريض، نعم هو حكم بالإعدام، فأغلب من تجاوز الخمس سنوات ولم يزرعْ له قوقعة قد أتْقَنَ لغة الإشارة، وأصبح له العديد من الأصدقاء الصم الذين يتبادل معهم كل المشاعر والأحاسيس، بل في الحقيقة يعيش بجسده مع والديه، ويعيش بقلبه وروحه مع مَن يُتقن لغة الإشارة، فيقع هذا المسكين بين نارين،

إمـا أن يرفضَ فيعيش جسـده بروحٍ أو يبـرّ بوالديه ويجري زراعـة القوقعة، والتي تعني أنه قد كَفـر بأهم أركان ثقافة الصـم، وهـي محاربة زراعة القوقعة، ومـن الصعب عليه ان يُكَفِّـر عن هذه الكبيرة أمام مجتمع الصم، فيكون جسـداً بلا روحٍ.

يُعاني مَن أجرى زراعة القوقعة في عمر متقدم من العيش في مجتمع السـمع، ويكمل دراسته في مدارس تقليدية، وبالمقابل يعاني من التهميش والاستنقاص، بل بالرفض في بعض مجتمعات الصم، كونه قد خالَف الإجماع الكبير لهذا المجتمـع في رفض زراعة القوقعـة وزارعيها، وبهذا يكـون هـذا المريـضُ ضحيَّـة عاطفـة والديه مَعْـزولاً في المنزل، فلا يسـتطيع الالتحاق بمـدارس تقليدية، ولا دمجاً ولا صمّـاً، حكم بالمؤبد الانفرادي جسـديّاً، وحكم بالإعدام نفسيّاً وعاطفيّاً.

كما أنَّ زراعة القوقعة قد تؤدِّي إلى فَقْد بقايا السمع وطنين في الأذن، هذه المشـكلة بسـيطة مقابل الاستفادة من زراعة القوقعة التي تسـاعد على السـمع وتقلل الطنين، ولكن إذا لم يستفد المريض من الزراعة، فقد لا يستطيع الرجوع للسـماعة التقليدية، ولا تحمـل الطنين مع عملية أخرى لإزالة الجهاز بالـغ التكلفة والذي حرم غيره منه، هذا إذا لـم يُصَبْ بمضاعفات أخرى؛ لأجل هذا لا يسـتغرب كل هذا التدقيق والتمحيص والتروي قَبْلَ إجراء زراعة القوقعة، ووجـود تخصصات مختلفة تتدارس كل مريض على حدة، وتنظر بعين شـاخصة على مستقبل بعيد بكل عقلانية وتفكُّر ومراجعة ومتابعة، خاصة فيمَنْ تَقَدَّم بهم العُمر.

الأصم عدو القوقعة

يقال: الإنسان عدو ما يجهل، ولمجتمع الصم كل الحق في محارَبة زراعة القوقعة، بكل ما لديهم من إمكانات، فلو وضعنا أقدامنا في أحذيتهم كما يُقال لسبقناهم في تثقيف الناس عن هذا الخطر المتربص بهم، فهذا المجتمعُ لا يرى إلا الحالات التي زرع لها قوقعة ولم يكتب لها النجاح، ومنهم من أصيب بمضاعفاتٍ كبيرةٍ لا تقبل السكوت عنها، صحيح أن نسبة نجاح الزراعة فوق ٩٠ ٪؛ أي: إنها في تقدير الممتاز، وصحيح أن نسبة فشل زراعة القوقعة بالكامل لا تتجاوز ٥٪، إلا أنها في منظور مجتمع الصم تُشَكِّل ١٠٠٪، فهم لم يروا أحدا أجريت له زراعة قوقعة واستفاد منها، فمثل هؤلاء يبتعدون عن مجتمع الصم، وينضمُّون لمجتمع السمع.

كما أن نسبة وجود مضاعفات لزراعة القوقعة من التهابات مزمنة، ورفضٍ للجهاز، وشلل عصب الوجه لا تتجاوز ٢ ٪، إلاَّ أنهاً وبالسبب نفسه تمثل مخاطرة، بل تجني على مريض ليس له حول ولا قوة ينساق إلى أحلام زائفة، ويغرر به من أناس لا تخاف عليهم، ولا تتحمل تبعات ماً أجرمتْ به ويحميهم قانون لا يراعي حقوق الصم وخصوصيتهم وحقهم بالعيش كما أراد اللّه لهم.

كلي أمل أن يأتي اليوم الذي يقوم به مَن أجرى زراعة القوقعة بتثقيف مجتمع الصم، بما وصل إليه من حياة رغيدة بنعمة السمع، وكيف أن أغلبية الذين أجريتْ لهم زراعة القوقعة ينعمون بحياةٍ رغيدةٍ، ولا يكاد ينقصون أو

يستنقصون عن غيرهم، لكي يتقبل مجتمع الصم لدينا ما تقبله مجتمع الصم في الدول المتقدمة بعد عناء طويل في محاربة ما يجهلون.

لا تؤجل عمل الغد إلى اليوم

يقال: لا تُؤَجِّلْ عمل اليوم إلى الغد، أما أنا فأقول للجميع: لا تؤجل عمل الغد إلى اليوم أنْهِه بالأمس! دائماً ما يقال: إنني متسرع، لكن لهذا التسرع ما يُبرره، فكل ثانية تأخير تعني مريضاً آخر قد لا يكتب له السمع، أو طبيب آخر لم يكتب له التعلم، أو براءة اختراع سبقنا إليها أحدٌ، أو بحث نشره قبلنا مبدع، وكلها تعني أجراً عظيماً من رب العالمين تنازلنا عنه لنرضي من يود أن نجاريهم في الحبي بدل الجري على الأقدام مع استطاعتنا أن نكون أسرع بامتطاء الحصان مع وصول غيرنا إلى ركوب الطائرات، صحيح أنهم سبقونا، ولكن ليس من الذكاء أن نبدأ مثلهم من تحت الصفر، بل الذكاء أنْ نبدأ من حيث توقف الآخرون.

ليس سرّاً أنه لم يستمرَّ في العمل معي إنسان لأكثر من سنتين، إلا أننا انفصلنا، وكل منا فخور بالآخر، ويتمنى له الخير، صحيح أن من يعمل معي يتجرع ألوان العذاب الجسدي، لكنه يكحل عينيه بنجاحات متسارعة، ويسجل في تاريخه إنجازات كبيرة؛ لهذا يَتَخَطَّفهم الأذكياء بمناصب أكبر، ورواتب أعلى.

كلي أمل أن يأتي اليوم الذي يأتي فيه من هو أسرع مني في تحمل هذه الأمانة، لكي أُسَلِّمَه زمام الأمور، وأترجل عن

هـذا المنصب، وأجلـس على منصة المتفرجين أسـتمتع بالراحة والتشجيع والانتقاد والتحليل، فلم يَعُدْ في العمر بقية، والأسـرة والصحة تحتاجان إلى شـيء مـن الاهتمام والتعويض على ما قد كان من تهميش وتأخير ولا مبالاة.

طلب مني يوماً أحد أساتذتي الحضور إلى مكتبه، وهو في منصب قيادي في الجامعة، وكنتُ على يقين أنها مصيدة، وبعد الثناء علي بما لا أسـتحق طلب مني قبول المناصب الإداريـة، ورسـم لـي العديـد من الدوائـر، وقـال: إن أصعب الدوائـر فـي الخروج هي الدائرة الأولـى، ومن ثم تنفتح هذ الدوائر تصاعديّاً، حتى يصبح المرء وزيراً، قلت لأستاذي: كلي يقين أن الوزير لن يكون أسعد مني، لهذا فأنا لا أتطلع إلى منصب يُقلل من سعادتي حيث إنَّ سعادتي الحقيقية في الوقت الحاضر تكمُن في حياتي في القوقعة، وفي المقابل لـن أكون أنانيّاً فـي خدمة جامعتي، ولو كان على حسـاب سـعادتي؛ لهذا دعني أفكِّر وأستخير وأستشير، أتوقع أنه كان ردّاً مهذباً ومبطناً بالرفض.

لـم يطـل الوقت حتـى اتصل علي أسـتاذ آخـر يقول لي: لقد حان الوقت لتكون رئيسـاً للقسـم، ولن يكون لك أي مفـر، فقلتُ له: هـل تبحث لي عن منصب؟ أم تبحث لهذا المنصـب عن الأفضل؟ فقـال: قل ما عنـدك، فقلت له: إنَّ أحد الزملاء في القسم أفضل مني، فقال لي: لا مفر، فقلتُ لـه: دعني أرشـدك إلـى خير الحلـول، وهي أن تستشـير طبيبين في القسم يعرفهما جيداً، وإذا نصحاك بي قبلتُ بهـذا المنصب، وإذا نصحاك بالآخر فاسـمع لهم!. وافقني الـرأي، وبعدها اتصلتُ مباشـرة على زميليّ في القسـم،

وتوعدتهما أيما توعُّد في نصحهما للعميد بي، بل قلت لهما: قد حَللتكم مسبقا في أن تقولوا عني أي شيء من عيوبي، مع رجاء خاص أن تكون بشيء من التضخيم، وأظهرتُ لهم من العيوب ما لم يكونوا يعلمون بها؛ لعلي أخرج من هذا الحرج، وكان أشهرها: (لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد)، ولله الحمد تكلَّلتْ هذه الخطة بالنجاح.

الاختلاف الشفاف

لن أطيلَ عليكم هنا: فهذا عنوان لكتابي التاسع، الذي قد يرى النور قبل هذا الكتاب، وفيه من القصص الممتعة والشيقة بين الأصدقاء في المجال الصحي ما يجعل الحكيم حيران، هل هؤلاء أصدقاء متعادون؟ أو أعداء متصادقون لكثرة المحبة والاختلاف؟!

مجتمع الأطباء ومختصي السمعيات والتخاطب هو مجتمع الأضداد، فهؤلاء البشر يُضخِّمون نقاط الاختلاف فيما بينهم، مع أنها لا تتجاوز عشر المعشار، إن لم يكونوا متطابقين، ولكن كلاٌّ منهم له زاوية رؤية مختلفة، ويُصِرُّ كلٌّ منهم في الغالب على رأيه، وكأنه نهاية العالم، وهذا ما يجعله قادراً على إيصال الليل بالنهار؛ ليتعلمَ شيئاً جديداً، أو يصوم عن الشهوات والمغريات ليحل مشكلة طبية معقدة.

أما الاختلافُ بينهم فحدِّث ولا حرج، فهو ديدنُهم الذي يثري المعرفة، ويوقد التنافس الشريف، وغالبا ما تخف هذه الحدة مع مرور الوقت ليس بسبب اقتناع أحد الطرفين برأي الآخر، بقدر ما وجدوا أن خطيهما المتوازي لن يتقاطع مهما امتدَّ بهم العمر.

في الحقيقة إن الاختلاف رحمة إذا كان شفافاً منطقيّاً راقياً، يؤمن بصحة رأي المخالفين، بينما يرى أن رأيه أصح منه، ويتمنى من اللّه أن يريهم الحق حقّاً، ويرزقهم اتباعه، ويريهم الباطل باطلاً ويرزقهم اجتنابه.

اختلاف الشخصيات يُعطي مشاربَ متعددةً للمريض، فمِن المرضى من يعشق الاستشاري الضاحك البشوش، فهو يشعرهم بالتفهم والتواضع والاطمئنان، ومنهم من يحب الطبيب الشديد العنيد، فهو يشعرهم بالأمان والحرص والثقة، وفي المقابل قد يجد المتتبع عن قرب أن الاستشاريين يتبادلون الأدوار فيما بينهم من باب عدم الاتفاق، ودرء النفاق، وللمحافظة على الاشتياق ليصل الآفاق.

والمضحك أن من يود الاصطياد بين الاستشاريين ظنّاً منه أن هذا الماء عكر، سيجد نفسه قد غرق فيه، واتضح له متأخراً وللأسف أنه ضحية جهله.

رزقني اللّه بالعديد من الزملاء مِن جراحين ومختصين سمعيات وتخاطب، قضيتُ وما زلت أقضي معهم أحلى أيام حياتي مع التباين الشاسع في الآراء والاختلاف في كل شيء لمجرد الاختلاف أحياناً مع علاقة تتوثق طرديّاً مع تباين الآراء، وعكسيّاً مع تلاقُح الأفكار، هذه العلاقة تحتاج إلى دراسة محكمة لظاهرة كونية قد لا تتكرر، فقد يكون لاختلاف المدارس أوِ التخصص أو الخبرات أو المستشفيات أو الإدارات دورٌ في هذا، أو أنها شخصيات قيادية تُنَصِّب نفسها وصية لتحدَّ من الحرية.

يمتاز العديدُ من هؤلاء الأصدقاء بعِشْقهم للنظام والتنظيم، وسن القوانين والتشريعات، والتشبث بحروف اللوائح، ووضع تنظيم لما لا تنظيم له، مع التخوف من المبادرة والتجربة والاكتشاف والمحاولة، إن لم تكن مدروسة متأنية، والخطوة التالية مضمونة النتائج بنجاح منقطع النظير، بينما تختلف الأقلية معهم – منهم أنا – لمجرد الاختلاف، ولأن لكل قانون روحاً، فخروج الروح من الجسد تجعله جثة هامدةً لا تلبث أن تتحلل، بينما روح بلا جسد لا توجد إلا في عالم الأشباح.

لم يكن لهذا المركز أن يرى النور، ولا لزمالة التخصص الدقيق أن تؤتي أكلها، ولا لكتب أن تؤلَّفَ، ولا لأبحاث أن تُنْشَر، ولا لدورات أن تُعْقَدَ، ولا لتقنية أن تتطورَ، لولا هذا التناسق بين الفريق، نعم لقد كان للتناظُر وليس التطابق أكبر الأثر في تحقق الأحلام أسرع من الأيام.

لا يخلو يومٌ من قصة جميلة بيننا نأخذ منها العبر والمتعة، والشوق لمغامرة جديدة من الاختلاف، مع استرجاع لنتائج الاختلافات التي يفسرها كل منا وكأنه المنتصر ليجني نقاط قوة للاختلاف القادم، القصصُ تتكررُ دائماً بيننا، وبسيناريوهات مختلفة تعطي عمقاً وبُعداً أكبر لكل قضية نناقشها، ولو كانت من نسجل الخيال، ومع تقدم العمر بنا تزداد الفجوة تذبذباً بين الامتداد والعمق، وتعطي دروساً للعديد من الزملاء والمتدربين، كيف أن الاختلاف يثري كل قضية.

يستفيد الذكي من أعدائه

نَعم، الذكيُّ يستثمر كل شيء لمصلحته، ويخرج من كل المنازلات منتصراً، ولو ظهر للغير أنه الخاسر، ينظر الأعداء إلى توافه النجاح، ويكبرونها لتصبح وكأنها النجاح كله، وبهؤلاء يستطيع العاقل الفَطِن اكتشاف هذه الأمور ليظهر عمله في صوره متكامِلة. لستُ مبالغاً لو قلت: يستفيد الذكي من أعدائه أضعاف ما يستفيد الغبي من أصدقائه، فأصدقاء الغبي دائماً ما يشعرونه بالتميز في التفاهة وقدرته المتناهية في البلاهة، وتفوقه على الجميع في الحماقة، وبقدر ما يبحث الغبي عن المؤيدين والمناصرين والمصفقين والمادحين، يبحث الذكي عن المنتقدين والمشككين والمعارضين والرافضين، أو كما يقول أينشتاين: (أنا مدين لمن قال لي: لا، فقد جعلوني أنجح بمفردي).

لم يسلم الأنبياء ولا الخلفاء ولا الصحابة من الأعداء، ومنهم من توشح بالنفاق، ومنهم من جاهر العداء، وهذه سنة اللّه في الكون، ولن يجد الإنسان أفضل علاج لهؤلاء الأعداء من قوله تعالى: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} [فصلت: ٣٤]

لن يتعادى أحدٌ مع مجنون ولا فاشل ولا مريض ولا فقير ولا فاجر ولا ميت، فإن كان لك أعداء فهذه من نعمة اللّه عليك، أنْ لَم تكن مع هؤلاء الأصناف من البشر، وكما يُقال: لا يُرمى بالحجر إلا الشجَرُ المثمر، لقد كان لأعداء النجاحات التي تحققتْ في هذا الكتاب كل الفضل في ظهورها

بأحلى حلة، بل وبسرعة تحققها، فلهم الشكر الجزيل.

هـؤلاء الأعداء لـن يتوقفوا عن حربهـم ويعترفوا بالنجاح لأهله؛ لأنهـم لا يبحثون عن الحقيقة، بل يحاربون ليكونوا هـم الحقيقة، وفي آخر مطافهم سيسـتجمعون قواهم ويوحـدون جهودهـم فـي سـلاح آخر خفـي فتـاك، وهو الحسد والعياذ باللّه

هم يَحْسُدوني على موتي فوا أَسَفِي
حتى من الموتِ لا أَحْلو مِن الحسَدِ

لكـن هـذا الحسـد ليـس إلا فضـلاً وتكريماً مـن اللّه قال الشاعر:

وإذا أراد اللّه نَشْرَ فضيلة طويتْ
أتاح لها لسانَ حَسُودِ

لولا اشتعالُ النار فيما جاورتْ
ما كان يُعرف طيبُ عُرف العودِ

الصديق الشـقيق

عصـب الوجـه هـو الصديـق لـكل جراحـي الأنـف والأذن والحنجـرة فـي كل جزءٍ مِـن الرقبة أو العنق، لـه فرع، وأي تأثـر لهذا الفرع يدفع المريض والطبيب ثمنه باهظاً، لكنّ جراحـي الأذن أكبـر الخائفيـن؛ حيـث إنهـم يتعاملون مع الجـذع الرئيسـي له، وبمـاذا يا ترى؟ بحفـار (دريل) لا يعرف الرحمـة ولا الشـفقة فيزيـل العظم، وكل ما فـي طريقه، وقـد تكـون غمضة عين لأعشـار الثانية كافيـة لجرح هذا

العصب والقضاء على مستقبل الطبيب! هذا العصبُ له فرعٌ صغيرٌ يغذي الذوق في فم الانسان، يبتعد عن عصب الوجه بثلاثة ميليمترات كأكثر تقدير؛ لهذا يكون الحفار بسمك ٢ ملم، هل بمقدورك أخي القارئ أن تتخيل معي حال ذلك الجراح في غرفة العمليات يتصبب عرَقاً ويتوجس خوفاً وهو ويحفر بين هذين العصبين ليصل إلى القوقعة.

من غير المقبول أن يدعي الإنسان صداقته بآخر، لا يعرف أين يسكنَ؟ ولا متى يدخل ويخرج؟ وأين يجده؟ وماذا يفرحه؟ وماذا يغضبه؟ وإلى أيِّ مدى يُمكن الاقتراب منه؟ وهل سيقف معه لو كان بحاجته أو لا؟ لهذا يكون طبيب الأنف والأذن والحنجرة المتخصص في جراحات الأذن الأصدق بصداقة هذا العصب، وهو الأجدر بحمل هذه الأمانة في جراحة القوقعة.

يقول الشاعر

احذَرْ عدوَّك مرةً واحذَرْ صديقك ألف مرةْ
فلربما انقلب الصديقُ فكان أعلم بالمَضَرَّة

نعم إذا انقلب عَصَبُ الوجه عدوّاً كان قادراً على إنهاء مستقبل الجراح، فالكوابيس لن تفارقه، والمتاريس لن تحميه، لهذا لا يُقْدم عاقل على إجراء زراعة القوقعة حتى يتيقنَ أن عصب الوَجه هو صديقه إن لم يكن شقيقه أو حتى توءمه.

بسبب هذا العصب تُعَدُّ عملية زراعة القوقعة أكثر

العمليات دقة وتعقيداً، وأكثرها مخاطرة، ومع كل ما يجد الجـراح من رعب وقلقٍ وتصبب للعـرق من هذه العمليات بسـبب هذا العصب، بقدر ما ينسـى كل شـيء بانتهاء العملية، ويتطلع لعصب آخر يتصادق معه بعد أن يَصدُقه بما يملك من علم ومهارةٍ، ويُصدق هذا العصب بما يحمل له مِن مفاجآتٍ.

كمـا أن هذا العصب كان السـببَ الرئيسـي لقيام بعض الأطباء غيـر المتخصصين بجراحـات الأذن بالالتفاف عليه، والابتعـاد عنه، غير أنهم أوقعوا أنفسـهم والمرضى في مضاعفـات كثيـرةٍ وكبيـرة؛ لهـذا جديـر بالذكـر أن على المريـض ألا ينسـاق خلـف الدعاية لطرق جديـدة مبتكرة لزراعـة القوقعة، فلو كان فيها خيرٌ مـا رماها الطير، وهم صقور زراعة القوقعة العالميين المتمرسين بجراحات الأذن.

عرض بنتي للخِطبة

تذكـرتُ أن العديـد مـن الصحابـة عـرض ابنتـه للخطبة، ومنهـم عمـر بـن الخطاب، عندمـا قدم إلـى النبي صلى اللّه عليه وسـلم يشـكو حاله مع أبي بكر وعثمان، وعدم قبولهما بخطبته أحد منهما لابنته، بينما لم يعلم أنهما امتنعـا لعلمهما برغبة المصطفى عليه الصلاة والسـلام بالزواج منها.

عرضتُ ابنتي العزيزة قوقعة للخطبة من أحد وزراء الصحة السـابقين، وبشـكل شـخصي، فقـد كنـتُ أتحـدث إلى أحـد أحبتي عـن حلمي بإقامة مستشـفى للأذن يضاهي مستشـفى الملك خالد للعيون الذي كان له بالغُ الأثر في

تغييـر بوصلـة العلاج عنـد المرضى مـن الخـارج للداخل، وبوصلة كل طبيب مبدع بالتعلم فيه بدل السـفر لأوروبا وكنـدا وأمريكا، بـل بوصلة العالم في معرفة مـا تَزْخَرُ به المملكة من إمكانات وقدرات، وكوادر وأبحاث واكتشافات، لـم تكـن أمـراض العيـون أكثـر انتشـاراً مـن الأذن فـي السـعودية، ولم يكـن أطباء العيون أكثر مـن الأذن قدرةً في علاج أمـراض تخصصهم، ولم تكن أمـراض الأذن أقل قسـوة وعناء للمرضى، لكن أطباء الأذن لم يُبادروا بطلب المساواة بالعيون، ولا إيصال صوت المريض للمسؤول.

قابلتُ الوزير بمفردي في مكتبه، وقدمتُ له مشروعَ إنشاء مستشـفى للأذن، وهـذا مخالف للأعـراف والبروتوكولات، فأنـا أسـتاذ جامعي، وأتبع مؤسسـة تعليميـة، وكان من الواجب أن أرفعَ هذا المقترح خلال القنوات الرسمية، والتي تعني أن أتقدم بهذا المشـروع لوحـدة الأذن، والتي ترفع للقسـم، ومن ثـم لمديـر المستشـفى، ومن ثـم وكيل الكليـة، ومن ثم عميد الكلية، يليه مجلس وكلاء الكلية، يعقبـه مجلـس الكليـة، إلـى وكيـل الجامعـة، فاللجنة الاستشارية، ثم مجلس الجامعة، ومن بعده مدير الجامعة، فوزير التعليم، فالديوان الملكي، وسلسـلة لا تنتهي من البيروقراطية، مع العديد من التعقيدات، والتي تعرف أدبا بكلمة: (تنقيح)، وإداريّاً بكلمة: (دراسة)، وتهميشاً بكلمة (أولويـة)، ووأدا بكلمـة: (تؤجل)، وفـي الحقيقة اتبعت كلا الطريقين، والخيرةُ فيما يختاره اللّه.

أخبرنـي الوزير أنه سـوف يقوم باستشـارة المختصين في وزارة الصحة، وأنه لا يفضل قيام مستشفى مستقل للأذن،

فتجربة الوزارة مع مستشفى العيون غير مُشَجِّعة حيث إنَّ العديد من المرضى قد يحتاج لتخصصات أخرى؛ مثل: الباطنة، والعناية المركزة، والإسعاف، والأطفال، والتي قد يصعب أن يستغني عنها في مستشفى متخصصٌ.

شُكِّلَتْ لجنة من جميع القطاعات الصِّحِّيَّة لدراسة هذا المقترح، ورُشِّحْتُ من جامعتي لعضوية هذه اللجنة التي رفعت بتوصياتها بإقامة مثل هذا المركز في مدينة طبية، ولم يتم تبنِّي مقترحي أن يكون في جامعة الملك سعود، لَم يطل العهد حتى أنشأتْ مدينة الملك فهد الطبية مركزاً لزراعة القوقعة، وكان هذا القرارُ كافياً لتبني جامعة الملك سعود إقامة مركز متخصص يحمل اسم خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز، وبهذا يكون التأخيرُ خيرة، فبدل أن يكون مركزاً واحداً أصبح مركزين، وما لبث أن اتَّفَقا أن يكونا مركزاً وطنيّاً واحداً يقوم فيه مركزُ الملك عبدالله التخصصي للأذن بدور الزراعة بشكل أساسيٍّ، بينما يقوم مركز القوقعة في مدينة الملك فهد الطبية بدور التأهيل.

الإعلام والملام

قابلتْ زوجتي زوجات بعض الأصدقاء لأول مرة، فقالوا لها: إن زوجك يحب الظهور والإعلام، فقالتْ لهم: لقد خَدَمَهُ الإعلامُ في إظهار أكبر الإعاقات انتشاراً، ووفَّر لها أرقى الخدمات الطبية في المملكة وأنا فخورة به! أخْبَرَتْني بهذه الحادثة، وهي مُستاءة من الذي يُقال، فأخبرتها بأنهم محقون، فهنَّ على درايةٍ بخطورة الإعلام، وخاصة في المجال الصحي،

فبقدر ما يسعى الطبيبُ لخدمة قضيته، بقدر ما قد يقع فريسةً سهلة لبعض الإعلاميين المرتزقة، وإن كانوا قلة، إلا أن الطبيبَ قد لا يستطيع بلُطْفِه أن يميزَ بينهم.

دعوني أصارحكم بمواقفَ صدمتني بشدة مع الإعلام، فقد كنتُ أكْتُب مقالات عدة وأُقَدِّمها للنشر، ولكن لم يحالفني الحظ، وكنت ألوم نفسي، فلغتي وتعبيري قد لا تكونان بالمستوى الجذاب للإعلاميين، كما أني مبتدئ، ولكل مبتدئ عقباتٌ في حقيقتها التنقيح والتصحيح وردم الفجوةَ الكبيرة بين ما يكتب في المجال العلمي وما يمكن إيصاله للقارئ على أرض الواقع.

أتذكَّر أن أحد العاملين في المستشفى لدينا عرَض عليَّ النشر، ولكنه ذكَر بشيء من الامتعاض ما يقوم به بعض الأطباء، فهم لا يُقَدِّرون الإعلاميين ودورهم الكبير في تثقيف المجتمع وسلطتهم الرابعة ويُساوونهم ببقية طبقات المجتمع، ويجعلونهم ينتظرون مع بقية المرضى في صالات الانتظار، ويسجلونهم ضمن المواعيد المجدولة في العيادات، ناهيك عن مراعاة انشغالهم بالإعلام، وعدم تسريع عملياتهم، كنت أستمع بكل اندهاش لما يرى هذا الزميل من مبررات لرجالات الإعلام على غيرِهم، فكانتْ إجابتي بسيطة وهي: هل يقر بقية المرضى هذا التمييز للإعلاميين؟ وهل في نظام الدولة أي تقديم لهم؟ ولماذا لا يُظهر الإعلاميون هذه المشكلة إعلاميّاً ليتمَّ تثقيف المجتمع بتمييز هؤلاء الإعلاميين عن بقية الشعب؟ وهل بمقدور الإعلاميين إبراز ما يحتاج إليه المريض إذا لم يختلطوا به ويُقاسمونه المعاناة!

أخبرتُ هذا الزميل أن بعض الأطباء يصف بعض الإعلاميين بالمرتزقة، لهذا لا يقابل أحدٌ منهم، نعم يَتَخَوَّف العديد من الأطباء من الإعلام وتثقيف المجتمع وإبراز الحقيقة تخوفاً من تبعات هذا الإعلام من شهرة تطالبهم بما لا ناقةَ لهم فيها ولا جمل، أو جعلهم فريسة سهلةً للمُتَصَيِّدين والناقمين والمجندين لهم، ويكفيهم عبرة ما آل له العديد من الأطباء وحتى الوزراء منهم، فممرضتي الإيدز من جنوب إفريقيا في عهد د. حمد المانع وآيباد د. الربيعة لطفلة نقل الدم كانتْ كافيةً لكي يترفع كل طبيب عن أي منصبٍ، ويبتعد عن أي إعلام.

بداية التجربة كانتْ في لقاء المرضى السنوي، والذي يرعاه معالي مدير الجامعة، وحرَصنا أن يظهرَ إعلاميّاً بأفضل الطرُق قبلنا ما تقدم به لنا أحدُ الموظفين في المستشفى بالقيام الكامل بهذا الدور لخبرته الطويلة وتجاربه المريرة مع الإعلام، وحرصاً منه على إظهار هذا الحدث بأفضل صورة، ووجوده في أي وقت وعلاقاته الكبيرة بالعديد من وسائل الإعلام المكتوبة والمشاهدة والمسموعة، ولا يود أن يرهقنا بالتواصل المزعج مع العديد من الإعلاميين، ولكي يكون الخبرُ موثقاً منا بدون تجاوزات صحفية تبحث عن الإثارة، وقد تفسد اللقاء برمته، فوافقت اللجنةُ المنظمةُ وتركنا الإعلام لأهله، إلا أن الحضور الإعلامي لم يكن مميزاً كما توقعنا، والطامة الكبرى أن هذا الموظف آثرَ صحيفةً واحدةً فقط بالخبر، وكتب في العنوان حصريّاً لهذه الصحيفة، فاشْتَطْنا غضباً، فلم يكن هذا ما تَمَّ الاتفاق عليه، ولم نستطع التواصُل مع هذا الموظف فيما بعدُ!

قصــة أخــرى صَدَمَتْنــي عندما تقــدَّم إلــي أحدُهم بطلب أن يكونَ المســؤول الإعلامي للكرســي، وأن له علاقات مع العديد من الصحف ووســائل الإعلام، فرحبتُ به، وشكرتُه على هذه المبادرة، إلا أنه صارحني بالقول: إنه يود أن يحددَ طريقــة الدفع؛ هل هي براتب أو بالخبــر؟ فقلتُ له: دعني أستشير بقية أعضاء الكرسي، وأرد عليك، وعندما قابلته بعدها بعدة أيــام أخبرته أنَّ الأعضاء لم يُوافقوا على هذا العرض جُملةً وتفصيلاً.

قابلنــي أحــدُ الإعلامييــن، وأعطاني بطاقتــه، وطلب رقم الجــوال، ومــن ثَمَّ أغــرق جوالي بمــا يقوم به مِــن تغطية إعلامية كبيرة على أعلى المستويات، وفي المجال الصحي بوَجْه خاص، وكان يســألني عن رأيي فيما يقوم به، وكنتُ أشــكره وأثْني عليه بما هو أهل له في نظري، وعند وفاة المغفــور له بإذن اللّه الملك عبداللّه بــن عبدالعزيز كتبتُ نعيــاً لهــذا الرجل الذي نفتخرُ أن نحملَ اســمه في مركزنا الوطنــي، وآثرتُ هذا الإعلامي الســعودي بهــذا الخبر ظنّاً مني أنني أكرمه بهذا الخبر عن غيره، إلا أنه لم يقمْ بإنزال الخبــر، وأعدتُ له الرســالة مراراً دون أن يردَّ عليَّ، فســألتُه: "هل هنالك كلفة عليك في هذا الخبر؟ ، فرد: نعم"!

فقلتُ له: إذاً ســامحني، وامســحْ رقمي مــن جوالك، فأنا لا أحــبُّ أن أكلــفَ علــى أحدٍ، فــرد بالرفض، لكوني مكســباً كبيراً له!

وبعد بضعة أيام أرســل لي أحد الأخبار التي قدمتها لأحد الإعلاميين يستأذنني بنشــرها، فلم أقبل التواصل معه،

وقلتُ هذا الخبر ليس بأهمية النعي مِن مركزنا لخادم الحرمين الشريفين، ومن ثم أخبرني أحد الإعلاميين بعدم التواصل معه؛ لكونه يودُّ الحصول على مبلغ ماليٍّ، ويود أن يظهرَ لك مدى قوته، فقلت له: أنا لا أقْبَل المساوَمات.

بالمقابل تجاربُنا التي سردتها والتي لم أسردها كانتْ كافيةً في تخويفنا من الإعلام، إذ تقوم العديدُ من المراكز الصغيرة والبسيطة والمراكز الخاصة بترويج نفسها إعلاميّاً، مما يجعل المريضَ فريسةً سهلة للعديد من المضاعفات والمشاكل الصحية، ناهيك عن المبالغ الخيالية التي قد يَتَكَبَّدها مِن أجْلِ حلمٍ قد يرسم له لا يكتشف حقيقتَه إلا بعد فواتِ الأوانِ.

لا أريد الإطالة هنا، ولكني على يقينٍ بأننا مقصرون إعلاميّاً في إيصال أهمية الإعاقة السمعية للمجتمع، وما زلنا نجهل الطريقة المُثلى في إيصال المعلومة الصحيحة والموثقة علميّاً، وكلي أمل أن يكونَ هذا الكتاب كفارة عن هذا التقصير.

وقد تبنتْ إحدى شركات زراعة القوقعة تقديم خدمة الإعلام عن مشاكل ضعف السمع وتثقيف المجتمع، ولها شراكة عالمية بإحدى شركات الإعلام ذات الفروع المنتشرة في العديد من دول العالم، فرحبنا بالفكرة، وهذا من الشراكات التي يقيمها الكرسي مع الشركات العالمية، وكنت واضحاً كل الوضوح أننا لن ندفع أي شيء، وفي المقابل لن نقبلَ أي شيء.

بعد سنين عدة اكتشفتُ أن أبرز الإعلاميين وأكثرهم مهارة كان يحضُر مبكراً للموعد، وينتظر الدور، ويتأسف أن مشكلته قد لا تُضاهي غيره من المرضى، ومن ثم يقف في الدور ليأخذ موعده القادم، وليجمع الدواء من الصيدلية، ولعل منهم رئيس تحرير لجريدة ومذيع مشهور.

كلي أمل أن تقومَ وزارة الإعلام بالحدِّ من تجاوزات الإعلاميين غير المؤهلين، وكشف المندسين وراء قلم الإعلام، والذين يبحثون عن المال والشهرة، ويساومون بالخبر كالمرتزقة، فإن أعطوا مجدوا وان لم يعطوا إذا هم يَسْخَطُون.

تنفس بالتنافس

التنافُس هو أفضل طوق نجاة للتنفس، عندما تختنق أنفاسُك من أي ضائقة ابحثْ عن المنافس لو تمكنتَ أن تجعلَ كل نسمة تَتَنَفَّسها تنافساً فلا تبخل على نفسك! كنا نعاني الأَمَرَّيْن من عدم القدرة على تقديم أفضل الخدمات للمرضى، وعدم القدرة على إجبار الشركات المصنعة والموردة على الالتزام الأخلاقي مع المريض، مقابل المبالغ الباهظة التي يحصلون عليها.

قمنا في مركز الملك عبدالله التخصصي للأذن بإشعال المنافسة بين الوُكلاء الموردين للزرعات، بل جعلنا هذا التنافس جليّاً مع الشركات المصنعة بالتواصل مع أعلى الهرم الإداري لديهم، وبكشف كل حقائق المنافسين لبعضهم البعض بكل شفافية، مما جعل المريض

لدينا ينعم بأفضل الخدمات وأسرعها، وأتذكر أن إحدى الشركات طالبتْنا بمبلغٍ ماليٍّ مقابل استبدال الزراعات التي أوشكتْ على الانتهاء، فطلبنا من الشركة المنافسة خطاباً رسميّاً أنها لن تأخذَ مقابلاً على الاستبدال، ومن ثَم أرسلنا هذا الخطاب للشركة المصنعة التي اجبرت الوكيل على الانصياع للمنافسة، هذه التجربة جعلتْنا لا نَتَرَدَّد في الرفع مباشرة لأكبر مسؤول في الشركة المصنعة، وكشف جميع الحقائق عن الوكيل، وعن توفر منافسين له قادرين على إرضاء المريض.

حضر إلينا أحدُهم وقد زرع لابنه في مستشفى آخر، وحرص أن يزرع لابنه الثاني لدينا لما سمع عن سرعة الخدمة ودقتها لدينا، إلا أنه أخبرنا أن ابنه الأول يحصل على أسلاك إضافية، فطلبنا من المورد أن يُقَدِّمَ نفس الخدمة لدينا وبدون مقابل، تنافُسنا مع أقدم وأكبر المراكز العالمية في تقديم أفضل الخدمات لمرضانا جاء بعد أن قُمنا بزيارات لهذه المراكز والتعرف عن قُربٍ بكل الخدمات التي يُوَفِّرُونها للمرضى، ولَم نعُدْ نتنافس مع بقية البرامج في المملكة في زراعة القوقعة، مما جعل مركز الملك عبدالله يقوم بأضعاف عدد زراعة القوقعة لدى بقية البرامج مجتمعة في مملكتنا الغالية.

إنَّ الجميع في مركز الملك عبدالله يرى أن التنافس البَنَّاء مع المراكز العالمية وتقديمه للبرامج المحلية هو الحل الأمثل للرقي بخدمة المريض، ليس في مركزنا فحَسْبُ، بل في جميع البرامج التي خرجتْ مِنْ رَحِم مركزنا، وانتشرتْ في العديد من مناطق المملكة الغالية.

الأصم مُحِقٌّ

المريـضُ هو الحَكم، يحقُّ للمريض أن يتعالجَ، ويحق له أن يسمعَ، ويحق له أن يَتَذَمَّر، ويحق له أن يطلبَ الأفضل، ويحقُّ له أن يَضَع بصمته في تاريخ زراعة القوقعة، بالمختصر يحق للأصـم ما لا يحق لغيره، بـل أكثر من هذا وذاك، فالمريض على حق دائماً.

أتذكَّـر أن مريضاً تَقَدَّم بالشـكوى مني، فشُـكِّلتْ لهذه الشـكوى لجنـة حققتْ فـي الأمر، ووجـدت أن المريض لم يكـن محقّاً في نظرهم، إلا أنني اعترضتُ على رأي اللجنة، ووقفـتُ مسـانداً للمريـض علـى شـكواه، وأنَّ مِـن حقه التعويض، فلم تستمع اللجنة لرأيي، فطلبتُ من المريض أن يُسامحني، فحتى لو كان التقصير من أحد أفراد الفريق، فيجب أن يتحمَّله في نظري أكبر مسؤول في الفريق.

ليـس هذا المقـالُ إشـعالا للنار فـي الهشـيم، فالعديدُ مـن المرضى لديهـم العديد مـن التسـاؤلات التي تصل للتشـكيك والامتعـاض والشـكوى، ولو تـم مصارحتهم بجميـع الحقيقـة مع الاعتـذار لتغيَّـر هذا التشـكيك إلى تقدير والامتعاض إلى إكبار والشـكوى إلى بكوى من كرم الطبيب وحلمه.

هَمْسـة هنـا فـي أُذن المريـض: تذكَّر يا أخـي المريض أن الطبيبَ مثلك إنسـان، غير أنه كالأم التي من المستحيل أن تقصرَ مع أبنائها، لكنها تُقَدِّم أكثرهم حاجة، والأصغر، والأضعف، والمسـافر، مع تقديرها وحبها للجميع، كما أن هـذا الطبيـب أبٌ وزوج، وابـن لديـه العديد مـن الواجبات

والالتزامات، ناهيك عن جسده وعبادته التي كثيراً ما يُقَصّر فيها من أجلك.

إنَّ تأخرك في الدخول على الطبيب يعني تأخر الطبيب عن رؤية أولاده، فدوامُه لا ينتهي إلا برؤية جميع المرضى، بل إن عمله لا ينتهي، فهو على مدار الساعة وَجِلٌ يترقب اتصالاً من مناوب، أو استشارة من زميل، أو بريداً إلكترونيّاً من طالب، أو أبحاثاً مطالباً بها، أو محاضرات يعدُّها أو... أو... أو... أو....

مرق القوقعة

يُقال بالعامية: "غاسل وجهه بمرق"، كنايةً عن عدم التحرج في طلب الناس، وهذا ديدن من يعمل في مجال زراعة القوقعة، ويكون قريباً جدّاً من المرضى، أقول هنا وبالفم المليان اعترافاً بالفضل للّه رب العالمين: إنني لم أستلفْ، أو أقترض شيئاً في حياتي لي، وإن شاء اللّه يكرمني ربي بهذا حتى وفاتي، وفي المقابل لم أترك إنساناً إلا وتوسلتُ إليه في تقديم ما يستطيع لهؤلاء المرضى، ويصح أن يُقال: غاسل وجهه بمرق!

يستغرب العديد من المسؤولين في الجامعة مدى إصراري وإلحاحي ومتابعتي لكل شؤون القوقعة في المركز، بل بتنازلي عن العديد من المسلّمات التي أؤمن بها، بل ومنازلة الزملاء أحياناً مِنْ أجْلِ مريض يتطلع لأن يسمعَ، حتى إن عميد كلية الطب والمشرفَ على المستشفيات الجامعية قال في كلمته الافتتاحية لمؤتمر عالمي: لقد أتعبني كثيراً هذا الطبيب بصعوبته وبكثرة طلباته التي

لا تنتهي، لقد كانتْ كلماتُه حقيقية، فأنا على يقين أنني أتعبتُ بل أرهقتُ مَن يرأسني، ولعل البلسم الشافي لهم ولي أنني لم أطلب شيئاً لشخصي، والعياذ باللّه، بل هو زيادة في العناء والمشقة لي ولمن يعمل في برنامج زراعة القوقعة.

في يوم عملياتي يترقَّب أطباء التخدير قائمةَ عملياتي بكل امتعاض، فكيف سيكون بمقدور فريقي إنهاء هذه العملياتً قبل نهاية الدوام الساعة الرابعة عصراً، وكثيراً ما يُكَرِّر رئيس قسم التخدير كلمات: "ارحمنا يوم"، و"نبغ نطلع يوم عملياتك مع الناس"، غالباً ما يفتح لنا المولى باب خير بتأجيل عمليات لأحد الزملاء، فنتمكن من استغلال غرفته، ومن النادر جدا أن تتأجَّل عمليات زراعة القوقة، ويا لها من كرامات أسبوعية!

قد لا يمر أسبوعٌ دون البحث عن غرفة عمليات فارغة نُدخل فيها مرضى زراعة القوقعة، مع شيءٍ من التوسل من صاحب الغرفة، وكثير من التواصل، هذا هو سر اتصالنا بالعديد من المرضى في اليوم السابق للعملية لإخبارهم عن إمكانية إجراء العملية في الغد، يستغرب البعضُ أن تكونَ عملية بهذه الأهمية والصعوبة لا يتم التخطيط لها بوقت طويل، لكي يتهيأ المريض، ولكن عندما يعلم أنها فُرَصٌ، لا نعلَم متى ننتهزها أو بتعبير أدق: نختطفها من غيرنا إلا قبلها بسويعات تتضح عندها الرؤية لما يقوم به فريقُ زراعة القوقعة من خدمات لهؤلاء المرضى.

نصيحتي لمن يرغب في زراعة القوقعة، أو من يشارك في برنامجها: أن يغسلَ وجهه بمرق، فمن كان في عون أخيه، كان اللّه في عونه، ومَنْ فَرَّج عن مؤمن كربة، فرَّج اللّه عنه من كرب يوم القيامة، ومن لم يغسلْ وجهه بمرق، فسوف يتوقف عاجلاً أم آجلاً عن هذه العمليات؛ لهذا من الأجدر ألا يرهقَ نفسه.

العلم بالتعليم

كانتْ لي قصة ظريفة مع أحد طلبتي، فبينما كنت أتحدَّث عن أهمية السمع والتي تتضح عند فقده، وعندما نقارنه بفقد البصر – مع أهميته – يتضح لنا أن السمع أكثر تأثيراً، والدليل على هذا أن الذي لا يسمع يَفْقد مع سمعه التحدث الجيد، وقد يصل إلى البكم، إذا كانَ الصمم منذ الولادة، كما يفقد القدرة على التحصيل العلمي الجيد؛ لهذا سمعنا بمن هو أعمى وقد وصل إلى أرقى درجات العلم والمعرفة في جميع ميادين الحياة، والأمثلة على ذلك كثيرة ومنها مشايخنا: العلامة عبدالعزيز بن باز رحمه اللّه، و الشيخ عبدالعزيز آل الشيخ مفتي السعودية، ولم نسمعْ بمن كان أصم ووصل إلى درجة عالية من المعرفة!

إلا أن أحد الطلبة قاطعني، وقال لي: الموسيقار الشهير بتهوفن كان أصم، وهو من أشهر الموسيقيين، وبسبب ثقافتي الضَّحْلة في هذا المجال رجعتُ للمراجع والعُهدة على الراوي أن هذا الرجل يدعى لودفيغ فان بيتهوفن ١٧٧٠ – ١٨٢٧م، ولد معافى وكان أبوه يعمل مغنياً بكنيسة

البلـدة، فتشـرب الموسـيقا منذ كان في المهـد، ومن ثم تتلمـذ علـى يد موزار الـذي قال عنه في صغـره: "انتبهوا إليـه جيـداً، فهو سيجعل الدنيا كلها تتحـدث عنه"، في الثلاثين من عمره أُصيـب بالصمم الذي أخذ بالتزايد حتى أصيـب بالوقر (الصمـم الكلي) في آخر حياتـه وقد أخفى المـرض عن جميع الناس، إلا أن التاريخ أبقى لنا شـيئاً من خـط يده وهي رسـالة لصديقه الدكتـور فيجلريبون، قال فيهـا: "إن أذنـي تصفر بشـكل دائـم ليل نهـار، وإن اللّه وحده ليعلم ماذا سـيصير إليه أمري!"، وأضاف: "بالنسـبة لـي، لا يوجد ترفيه ولا تسـلية في المجتمعات الإنسـانية، ولا أسـتطيع أن أستمتعَ بحوار شـيق، أو أن أتبادلَ أفكاري وأحاسيسـي مع الآخرين، لا مفَر منْ أن أعيش في منفى، وبعد قليل يتعين عليَّ أن أضع نهاية لحياتي)، وكانت آخر مقطوعة له هي: (يا ربِ لمَ أشـقيتَني ولَم أُشْـقِ أحداً من عبـادك!)، تمنيتُ لو كنتَ أعرف هذهَ القصة لأقفَ بالمرصاد لهـذا الطالب وأعاقبه لعـدم تصديقه ما أقول ويقول كل أسـتاذ في الجامعة، ويكون عبرة لمن لا يعتبر، ويؤمن أن كلمات عضـو هيئة التدريس مـن المُسَـلَّمات والقوانين الكونيـة التـي لا تتبـدَّل ولا تتغير، في الحقيقـة أتقدم له بالشـكر الجزيل، وأنـا مدين له بتلاقح الأفـكار، وصحيح أن "أفضل مثقف للمعلم طلبته".

الزراعات والمصنعين

صناعة الزراعة

لن يكونَ أيُّ كتاب كاملاً سوى كتاب رب العالمين، ولكن ما لا يُدْرَك كله لا يُترك جله، والجل هنا في إعطائك أخي القارئ نبذةً مختصرة عن مختلف الزراعات وتاريخ نشأتها، وكيف تَطَوَّرَتْ ولن يكونَ بوسعنا التطرُّق لما انقرض منها، ولا التنبؤ بما سيستجدُّ فيها، مع حِرْص العديد من المرضى على معرفة هل هذه التقنية وليدة اليوم أو لا؟ وهل من الأجدر بهم التريث لما يستجد من تقنية أو لا؟

مما يُطمئن الجميع أن هذه التقنية تحت رقابة صارمة، تستوجب توثيق كل التجارب، وتسجيل كل المضاعفات والتدرج العلمي العالمي قبل تقديم أي منتج، كما يطمئن أيضاً أن هذه التقنية تراعي الأجيال الأولى، فتجعل كل جديد متوافقاً مع كل قديم، ناهيك عن أن صناعة السَّمَّاعات قد وصلتْ إلى مرحلة مُنبسطة من التطوُّر الذي يعطي الراحة النفسية علَى الإقدام على هذه التقنية.

وهنا وقفة سريعة أُحِبُّ أن أُؤَكِّد فيها أن مستوى جودة هذه الزراعات أصبح متقارباً للغاية؛ بحيث يَصْعُب معه تفضيل إحداها على الأخرى، لهذا ينصح المريض بعدم تصديق ما تُرَوِّجُه هذه الشركات من تميزها على غيرها،

فالأهم دائماً هو الخدمات والصيانة لما بعد البيع.

مِن هذا المنطلق حرصتُ أن تأتي الشركات للمريض في مركزنا، ولا يذهب المريض إليهم، وتكون تحت أعيننا في تقديمها لأرقى الخدمات لهؤلاء الأحبة، فهذا أبسط ما نستطيع تقديمه لهم، كما جعلنا لكل شركة ملفاً به جميع شكاوى المرضى، ونطلب من هذه الشركات الرد عليها خطيّاً، ومن هذا الملف يتم تقييم الشركات والرفع لأكبر مسؤول فيها عن مدى رضاء المرضى عنهم مع تقييم مُشترك لكل الشركات بكل شفافية، ولن أكون مبالغاً لو قلت: إن المريضَ هو مَن يُدير هذا المركز العالمي، وهو مَنْ يرسم خططه المستقبلية.

السماعة الاهتزازية

لم يكن هنالك علاجٌ للمرضى المصابين بضعف السمع المتوسط إلا السماعات، حتى خرج من رحم المعاناة مهندس إلكترونيات يُدْعَى جيوف بول، والذي كان يُعاني من ضعف السمع بعد حرارة أصابته في الصغر، كان يرتدي السماعات، والتي كانت ترفع الصوت في أذنه، إلا أنها لَم تُرْضِ شغفَه في فَهْم الأصوات بشكل جيد.

في سن الخامسة عشرة سأل طبيبَه عن إمكانية الزراعة، فأخبره الطبيب أن المستقبل القريب سيشهد ثورةً في مجال الزراعات، ولم يكن في خلده أنه بعد ثمانيةَ عشرة عاماً سيتم زراعة سماعة له مِن اختراعه.

بعد أن أنهى دراسته الجامعية عمل في مختبرٍ

للأبحاث كفنّي معمل لمدة ثمان سنوات، أفنى سنوات من عمره لكي يكتشف إمكانية استخدام المجال الكهرومغناطيسي في توليد حركة بسيطة للغاية يمكن معها استثارة الأذن الداخلية، كان في عام ١٩٩٢ م موقناً بهذه الفكرة؛ لهذا قضى الساعات الطوال في فترة المساء يجري الاختبارات تلو الاختبارات التي لم يُكْتَبْ لها النجاح، حتى ليلة من الليالي تمكّن من تحقيق حلمه باختراعٍ سَجَّل له البراءة في عام ١٩٩٣ م، وقامت شركة ميديل النمساوية بشراء هذا المنتج بعد عشر سنوات، ومن ثم تطويره بخبرتها الكبيرة في هذا المجال، وبهذا أشرق فجرٌ جديدٌ من الأمل للعديد من المرضى الذين لم يصلْ ضعف السمع لديهم لزراعة القوقعة، إلا أنهم لا يحصلون على رغبتهم السمعية بالسماعات التقليدية.

قام أحد الأطباء الإيطاليين بمغامرةٍ غَيَّرَتْ مجرى التاريخ في علاج ضعف السمع المختلط (توصيلي مع حسي عصبي)، وذلك بوَضْعِ هذه الزرعة على نافذة القوقعة الدائرية، بحيث يتم هز القوقعة بشكل عكسيٍّ بدلاً من انتقال الموجات من النافذة البيضاوية للنافذة الدائرية، وتكلَّلَتْ هذه المغامرة بالنجاح، وأصبحت الزراعاتُ في هذا الضعف أكثر انتشاراً لعدم وجود منافسٍ بنفس الجودة.

تقوم تقنية السماعة الاهتزازية على فكرة إيصال الاهتزازات الصوتية إلى أقرب نقطة ممكنة من القوقعة؛ حيث وجد أن الاقتراب من القوقعة يُوَفِّر الطاقة اللازمة لإيصال هذه الذبذبات إلى الأذن الداخلية، وسُمِّيَتْ أيضاً بجسر الصوت Soundbridge.

أجرينا هذه العملية لأول مرة في الشرق الأوسط لدينا ولأحد أخصائي التخدير لدينا، والذي أصبح يَنْعَمُ بحياة سعيدة، بل إن استشاري التخدير تقدَّموا لنا بالشكر الجزيل، فقد تَمَكَّنُوا من التواصل مع هذا الزميل بشكل أفضل، ولم أكن لأترك هذه الفرحة دون استثمارها، والتأكيد على أن جميع مرضانا لهم معاناة وقصص نجاح لهم الفضل فيها بعد اللّه، بسبب صبرهم علينا وصبرهم على تأخرنا في العمليات.

السَّمَّاعة العظمية

السَّمَّاعة العظمية: سَمَّاعات تزرع مُثبتاتها في العظم، وتعتمد على توصيل العظام للصوت، وهي مناسبةٌ لمن يعاني ضعفاً في السمع التوصيلي في المقام الأول، والذين لا يستطيعون ارتداء السماعات التقليدية، بعد أن أثبتتْ هذه السماعات قدرتها في علاج المرضى مع مضاعفات قليلة تَمَّ زراعتها لمن يعاني من ضعف السمع المختلط والصمم في جانب واحد، وتعد أكبر ميزة لهذا الجهاز هي إمكانية تجربته على المريض قبل إجراء العملية، ومن ثم يكون له القدرة في اتخاذ القرار بالزراعة من عدمها.

اكتشف البروفسور برينمارك أن مادة التيتانيوم تتفاعل مع العظم بطريقة الاندماج، مما ينتج عنه ارتباطٌ قويٌّ يصعب معه انتزاع هذه المادة مستقبلاً، وتحملها لأثقال كبيرة، والأهم من هذا عدم رفض الجسم لها، كان التطبيقُ الطبي لهذا الاكتشاف في جراحة الفم، حيث

تَـمَّ زراعــة الأســنان، فأصبحــتْ هنالــك طفــرةٌ علمية في هذا المجال، وبعد هذا الاكتشــاف قــام طبيبٌ في مدينة جوتنبرج السويدية يدعى جلستررام عام ١٩٧٧ بزراعة مثبت التيتانيوم خلف الأذن لتعلّق به سماعة تُحَوِّل الصوت إلى اهتزازاتٍ تُنْقَل عن طريق العظم للأذن الداخلية.

ومن أكثر الحالات اســتفادة من هذه الزراعات من وُلِدَ بدون قنوات الأذن الخارجية، أو لديه تشــوُّه في صيوان الأذن، نتج عنــه ضعفُ ســمع توصيلي، وهــذه الحــالات كان يُجرى لها عمليــات فتــح القنــاة وتصحيح الســمع جراحيّــاً، إلا أن هذه الجراحــات لم تكــنْ ناجحةً دائمــاً في إعادة الســمع، كما أن لهــا مضاعفات عــدة؛ منها: ضعف عصب الوجــه والتهابات متكــررة. كمــا أن المرضــى الذين يُعانون مــن التهاب الأذن الوســطى المزمن مع خرم الطبلــة وتلف العظام الصغيرة في الأذن الوسطى هم ممن يستفيدون من هذه الزراعة.

تُجــرى العملية تحت التخدير العام، ويتم إزالة ما تحت الجلد بشــكل كامل، وبالإضافــة إلى بصيلات الشــعر من منطقة الزراعة لكي لا ينموَ الشَّعْرُ في هذه المنطقة الصغيرة، مما يُقَلِّل من التهابات الجلد، وعدم التأثير على اهتزازات الجهاز مســتقبلاً، مع إمكانية إبقاء هذه الأنسجة، والاستعاضة عن تداخلهــا بمثبت طويــل، ويتم بعد العمليــة نُصح المريض بأهميــة العناية بمنطقــة الزراعة وتنظيفها بشــكل دوريٍّ لتجنــب المضاعفات، كمــا يتم تركيب الســماعات على هذا المثبت وبرمجتها بالمستوى الذي يُناسب المريض.

وتَتَطَلَّب هذه العمليةُ وجودَ سماكة لعظم الجمجمة لا يقل

عن ٢,٥ مم، وقد لا تكون هذه السماكة متوفرة وخاصة في المتلازمات لبعض الأمراض، لهذا يتم تأخير هذه العمليات لسن متقدم، لكي يتم التأكُّد من وجود عظم كافٍ ولكي يكون بمقدور الطفل تقبل العناية بالزراعة وحتى هذا العمر يتم الاستفادة من لبس الطوق بالسماعة.

وقد أثبتتْ هذه الزراعة فائدةً كبيرة للأمراض التالية:

١. فقدان السمع مِن جانب واحد، والذي قد يُؤَدِّي إلى صعوبة في السمع خاصة في الأماكن الصاخبة، وعندما يتحدث عدة أشخاص في نفس الوقت.

٢. ضعف السمع التوصيلي في الأذن الوحيدة؛ حيث لا يجرُؤ أي جراح أذن على إجراء العمليات فيها لخطورة فقدان السمع.

٣. تهيج في قناة الأذن الخارجية بسبب الالتهابات أو الأكزيما، مما يحد مِن استخدام السماعات.

ومما حَدَّ من انتشار هذه التقنية التكلفة العالية، كما أنها تَتَطَلَّب جراحةً، بالإضافة إلى بعض المضاعفات ومنها:

١. مضاعفات التخدير العام، وعدم إمكانية التخدير لكل الحالات.

٢. عدم اندماج التيتانيوم مع العظم.

٣. عدوى مزمنة قد لا تستجيب للعلاج.

٤. إصابة الغرسة بضربة.

٥. تهيج الجلد المحيط بالزرعة.

٦. فرط نمو الجلد فوق الجهاز.

٧. ألم مستمر.

القوقعة الإلكترونية

هو جهازٌ إلكتروني مزروعٌ جراحيّاً في القوقعة، يُوَفِّر شعوراً بالصوت لشخص فاقد للسمع الحسي العصبي، قد تساعد زراعة قوقعة على توفير السمع في المرضى الذين يعانون من الصمم بسبب تلف الشعيرات الحسية في القوقعة. لا تضاهي هذه الزراعات عظَمة الخالق جل جلاله، إلا أنها في كثير من الأحيان تُمَكِّن المريض من السمع، ومن ثم الفهم الأفضل للكلام، وذلك لما للمخ من قدرة عالية على برمجة هذه النبضات بشكلٍ يؤهل المريض لاستيعابها.

تاريخ زراعة القوقعة في غاية التشويق والمتعة؛ ففي عام ١٩٥٧م طلب جراح أنف أذن وحنجرة فرنسي من جذور جزائرية يُدعى إيريز من أستاذ الفيزياء الطبية الفرنسي ويدعى دجورنو النظر في إمكانية استثارة عصب الوجه بالكهرباء، حيث كان المريضُ يعاني من تسوس في الأذن، قضى على سمع المريض كليّاً في كلتا الأذنين، وشل له عصب الوجه، وكشف له عصب السمع، إلا أن المريض سمع أصواتاً عند استثارة عصب الوجه الذي لم يحرك ساكناً. هؤلاء المبدعون سَجَّلوا للتاريخ إمكانية السمع بالتحفيز الكهربائي المباشر لعصب السمع، مع

أنهم سجلوا فشلهم في هدفهم الأساسي في تحريك الوجه، والغريب أنهم توقفوا عند هذا الحد لعدم وجود التمويل الكافي لهم، وعدم وجود نتائج مرضية في نظرهم تستدعي إكمال المسير.

بعد ذلك بأربعة أعوام قدم مريضٌ إلى طبيب أمريكي يدعى وليام هاوس، وأخبره عن رغبته في استعادة السمع كما فعل الفرنسيون وأحضر معه المقال الذي كتبتْ فيه هذه الحادثة، فقام هذا الطبيب بترجمة المقال، والتعرف عن قُرب على هذا الاكتشاف، وقد كان محظوظاً في توفر إمكانيات أفضل لديه في جراحات الأذن، وكان أهمها وجود المجهر! قام هذا الطبيب بزراعة أول قوقعة في جسم الإنسان وبطريقة ما زالتْ إلى الآن تُعَدُّ الطريقة المثلى جراحيّاً لإجراء هذه العمليات المعقدة، لكن الحظ لم يُسْعِفْهُ لإصراره الدائم على زراعة القناة الواحدة في القوقعة، والتي لم تأتِ بنتائجَ مُقنعة للعديد من مُتَبَنِّي علاج الصمم جراحيّاً، كما أن الحظَّ وقف له بالمرصاد، فتُوُفِّي قبل أن يحوزَ على جائزة نوبل للطب والتي يستحقها بكل جدارة.

في عام ١٩٦٦ م أجرى جراح أمريكي يُدعى: سيمون، أول زراعة قوقعة متعددة الأقطاب ليعطي مجالاً أكبر لتغطية العديد من الترددات، إلا أن الحظَّ أيضاً لم يكن في صالحه، فلم يُكمل المشوار لعدم ظهور نتائج مرضية، لكن الحظ حالف د. كلارك في ملبورن الأسترالية ود. خوخمير في فينا النمساوية بعد ذلك بزراعة متعددة الأقطاب، كتب لها النجاح، ومن هذا النجاح قامتْ شركة كوكليا في

أستراليا وشـركة ميديل في النمسا عمالقة زراعة القوقعة حتـى وقتنا الحاضر، وتم زراعة ما يقارب المليون جهاز حتى هـذه اللحظة في جميع أنحـاء العالـم، والغالبية العظمى منها في البلدان المتَقَدِّمة، وذلك بسـبب التكلفة العالية للجهاز، وتوفر الجراحين المَهَرة والتأهيل ما بعد الزراعة.

حيـث إنَّ زراعة القوقعـة تَتَطَلَّب إجراء عمليـة جراحية في غاية الدقة لجهاز بالغ التكلفة؛ لهذا اتفق جميع المختصين في المجال الطبي على وضع شروط لزراعة القوقعة، وهي:

١. ضعف حسي عصبي شديد في كلتا الأذنين.

٢. عدم الاستفادة من السماعات القوية في كلتا الأذنين.

٣. وجود القوقعة والعصب السمعي في الأشعة.

٤. وجـود حصيلة لُغوية لـدى المريض أو يكون أصغر من أربع سنوات.

٥. عدم وجود مانع طبي من التخدير والعملية.

٦. حرص المريض على السمع.

٧. تفهم كبير للزراعة ونتائجها ومضاعفاتها.

٨. توقعات عقلانية للنتائج.

٩. وجود دعم وحرص كبير مِنْ قِبَل الأهل.

١٠. وجود الخدمات المتكاملة في المركز من استشـاريين متخصصيـن في جراحـات الأذن، ومختصي سـمعيات للتقييم والبرمجة ومختصي تخاطب للتأهيل.

الجراحة

تُعَـدُّ عمليـة زراعـة القوقعـة مـن العمليـات الصعبـة والمعقـدة، والتي تحتاج إلى مهـارات جراحية عالية، لهذا لا يقـوم بهـذه العمليـات إلاّ مَن تخصص بدقّـة في مجال جراحات الأذن، وحصل علـى تدريب مُتَقَدِّم في إجراء هذه العمليـات؛ لهذا يجدر بالذكر أن يكون المريض أو ولي أمر الطفل على دراية بتخصص الجراح في مجال جراحات الأذن حيـث إنَّ بعـض الأطباء يودُّ أن يقوم بهـذه العمليات من بـاب الرغبـة والتشـوق دون تخصصه، أو تدربـه على هذه العمليـات فـي مراكز عالميـة مُعترف بها، ممـا يؤدي إلى مضاعفات خطيرة لا سمح اللّه للمريض، قد يكون بعضها غير قابل للتصحيح مِن قِبَل المختصين في هذا المجال.

تُجـرى هذه العمليات تحت التخدير العام، ويقوم الجَرَّاحُ بعد تخدير المريض بوضع مجسَّات فوق العين وفوق الفم تتصل بجهاز الكَشْف على عصب الوجه أثناء العملية، ومن ثم يتم تعقيم مكان العمليَّة وتغطية جميع الجسـم ما عدى الأذن! قـد يحتـاج الجراحُ قبل هذا لحلاقة جزء بسـيط من الشـعر، إذ يكـون جـرحُ العملية صغيراً لا يتجاوز ٤ سـمً، وهي كافية لإجـراء هذه العملية، فكبر الجرح يكون عُرْضةً للالتهاب، كما أنـه يطيـل مِن وقـت العملية، ويحتـاج حلاقة أكبر للشـعر، ناهيك عن أنه لا يضيف شيئاً جوهريّاً للعملية.

بعد أن يتمَّ الكَشْـفُ عن قنـاة الأذن من خلال هذا الجرح، يقوم الجراح بإزالة قشـرة العظم لجيب هوائيٍّ خلف الأذن يُعـرف بالخشـاء، والذي من خلالـه يتم الدخـول إلى الأذن

الوسطى، دون الاقتراب من جلد القناة السمعية، وفي هذا المقام يجب التأكيد على أنَّ جميع المراكز العالمية وأمهر الجراحين العالميين يَعُونَ خطورة الاقتراب من جلد القناة، والذي قد يُسَبِّب تخلخلاً في حركة الجلد المهاجر من الطبلة إلى خارج الأذن، مما قد يؤدِّي لا سمحَ اللّه إلى مضاعفاتٍ في غاية الخطورة؛ مثل: تسوُّس الأذن، لهذا يتكرر التنبيه إلى عدم المجازفة في إجراء هذه العمليات على أيادي جراحين لا يُتْقِنُون جراحات الأذن، ويُرَوِّجون لأنفسهم بترُّهات لا يقبلها أحد، بعد هذا يتم تحضير مهد للغرسة خلف الأذن بإزالة جزء من قشرة العظم لأجل ألاَّ يكون الجهاز بارزاً، ولكي يوثق الجهاز في مكانه ومنعه من التحرُّك.

يتمُّ الدُّخول للأذن الوسطى من خلال مثلث عظمي، يحدُّه عصب الوجه من الخلف، وعصب الذوق في الأمام، وعظمة السندان من الأعلى، وقد لا يبعد عصب الذوق عن عصب الوجه إلا ٢ مم، نعم ٢ ملم، وهنا تكمُن مهارة الجراح في الحفاظ على سلامة الأعصاب، وبيده حفار للعظم سريع الحركة، لا يقبل المغامرة من جراح لا يُتقن ما يقوم به، بعد هذا يتم الكشف عن الأذن الوسطى، والتعرف على مواقع مهمة فيها، وعلى ضوء هذا يتم البحث عن النافذة المستديرة للقوقعة، واختيار الطريقة المثلى في إدخال ألياف القوقعة الصناعية إلى جوف الأذن الداخليَّة.

يتم فَتْحُ النافذة المستديرة في القوقعة، أو توسيعها، أو فتح نافذة جديدة تحتها تُسهل من دخول الجهاز كاملاً إلى الأذن الداخلية، وجميع هذه الطرق صحيحة، وتؤدِّي

الغرض نفسه، وتعتمد على نوع الجهاز وخبرة الجرَّاح وسهولة العملية.

بعد إدخال جميع القنوات المحفِّزة للقوقعة على شريط الغرسة، يقوم الجراح بإقفال الأذن الداخلية، وقيام مختص السمعيات بإجراء الاختبارات للتأكُّد من سلامة الجهاز، والتأكُّد من استجابة الأذن للمثيرات الكهربائية لهذه الغرسة، في هذه الأثناء يقوم الجراحُ بإقفال الجرح، ومن ثم يقوم طبيبُ التخدير على إفاقة المريض وإخراجه إلى غرفة النقاهة، وبعدها يتم إرجاع المريض إلى غرفته، بعد التأكد من سلامة عصب الوجه وعدم وجود مُضاعفات.

في اليوم التالي يتمُّ خُروج المريض من المستشفى بعد إجراء أشعة للتأكُّد من عدم تحرُّك الجهاز من مكانه، كما يتم تركيب المعالج الخارجي للمريض إذا أحبَّ ذلك؛ حيث إن صغر الجرح وثبات الجهاز وصحة البرمجة تكون كافيةً لاستمتاع المريض بهذا الجهاز في يومه الأول.

هنالك حقائقُ في غاية الأهمية يجب أن تكونَ جَلِيَّةً للمريض قبل إجراء العملية، وهي:

١. إذا سمع الإنسانُ بشكلٍ جيدٍ في السنوات الخمس الأولى من عمره، ومن ثم تحدثَ بلغةٍ صحيحةٍ مفهومة، فإن منطقة السمع في المخ تترسخ وتبقى مدى الحياة تقريباً، وهذه الحالات هي أفضلُ نوع من ضعف السمع الذي يستجيب لزراعة القوقعة.

٢. إذا وُلِدَ الطفل أصمَّ، ولم يتمكن من السمع بشكل

جيد، فإن منطقة السمع تتقلص بشكل كبير؛ حيث إنَّ المخ لا يفرط في مواقع كبيرة ومهمة لم يتم استغلالها، وبعد السنوات الخمس الأولى من العمر تكون هذه المنطقةُ صغيرةً للغاية، لدرجة أن الاستفادة من زراعة القوقعة تكون محدودةً في التعرف على وجود أصوات فقط دون معرفتها، أو تمييزها؛ لهذا تشدِّد العديدُ من المراكز على استبعاد هذه الفئة العمرية مِن زراعة القوقعة.

٣. زراعة القوقعة قد تُؤدِّي إلى انتهاء بقايا السمع في الأذن، كما قد تُؤدِّي إلى طنين، لهذا لا ينصح بإجراء الزراعة في الحالات التي لا يتوقع لها النجاح بنسبة عالية حيث إنَّ هذه الحالات لم تستطع السمع بالزراعة، وفقدت الاستفادة من السماعات التقليدية، وقد يتفاقم لديها الطنينُ المزعج.

٤. طيف اضطراب السمع العصبي

Auditory neuropathy spectrum disorder (ANSD)

هي حالات غير نادرة، تكون فيها اختبارات السمع للقوقعة سليمةً، بينما يكون ضعف السمع جليّاً في بقية الاختبارات، وهذه الحالات عبارة عن متلازمة يصعُب تحليلها أو تقسيمها، لكي يُتمكن مِن التنبؤ من سبب ضعف السمع، وقابلية استفادته من زراعة القوقعة، فبعضُ هذه الحالات تُضاهي نتائج زراعة القوقعة في النتائج المعتادة، بينما البعض منها

يكـون بنتائج أقل وتحتاج لجلسـات أكبـر وأطول من البرمجـة والتأهيل، إلا أن منهم من لا يسـتفيد إطلاقاً من هذه الزراعة، ومع هذا يتفق جميعُ المختصّين على إجـراء الزراعة لهـذه الحالات مـع إعطـاء توضيح كامل لوالـدي الطفـل عـنْ هـذه المتلازمة، وصعوبـة التنبؤ بالنتائـج، وعـدم توفر خيـار آخر حيث إنَّ زراعة سـماعة جذع الدماغ لَم تكنْ جيدة أيضاً.

٥. أثبتت الأبحاثُ أن إجـراء عملية زراعة القوقعة في أعمار صغيرةٍ يعطي نتائج أفضل، ويُقَلِّل الحاجة إلى التأهيل بعد العملية، إلا أن هنالك حقائقَ يجب التنبه لها، وهي أن وزن الطفل يكون مهمّاً عند التخدير، ففقد قطرات بسـيطة من الـدم قد تؤثّر على الطفـل، كما أنَّ صِغَر الجمجمة يَجْعل الغرسة أكثر بروزاً مع احتمالية التحرك أو العطب أكبر! ناهيك عن أن العظمَ في صِغار السن يكـون غنيّاً بالأوعية الدموية، وبهذا يكون النزفُ أكبر، لهذا يحتاج الموضوع إلى موازنةٍ عقلانيةٍ بين المخاطر والفوائد، كما أن فترة الانتظار مهمةٌ في تدريب الطفل علـى لبس السـماعة، والتأكد من عـدم وجود أمراض جسـدية أو نفسـية عند الطفل؛ لهذا كانـت العمليةُ من سنة إلى سنتين هي الأفضل.

٦. باستطاعة الإنسان أن يعيشَ بأذن واحدة مدى الحياة، لكـن وجود أذنين لـم يكـن إلا لحكمة إلهيـةٍ، ومنها مـا تعـرف إليه العلـم الحديـث، وهي أن وجـودَ أذنين ذا فوائـد جمة منها: السـماع فـي كل الاتجاهات، دون الحاجة للالتفات لمصدر الصوت، والقدرة على السـماع

بشـكل أفضل، وخاصة في أماكـن الضجيج، ومن هنا حرَص الجميع على إجراء زراعة القوقعة في الأذنين في أسـرع وقت، وفـي عملية واحدة ما أمكـن هذا، كما أنّ هـذا الأمـر ذو فائدة أخرى في توفر إمكانية السـمع إذا تعطَّل أحد الأجهزة، أو ضاع، وخاصة عند الأطفال.

يتخـوف بعـضُ المرضى من زراعـة كلتـا الأذنين لكي يجعلـوا هنالك أملاً من رجوع السـمع في المسـتقبل بتقنيـات أخرى؛ مثـل: الخلايـا الجذعية أو زراعـات أكثر تقدمـاً، إلا أن أغلـب المختصيـن مقتنعـون أن هذا لن يكـونَ فـي القريب العاجل، ناهيك عن قلة الاسـتفادة مـع مرور الوقـت من الأذن التي لا تسـمع لتجاهل المخ لهـا مـع وصـول زراعـة القوقعة إلـى مراحـل متقدمة يَصْعُـب معها أن يكونَ هنالـك بديلٌ منافسٌ، كما أن كل التقنيـات الحديثـة تراعـي الغرسـات القديمة في تقديم أيِّ منتج جديد.

٧. المرضى الذين فقدوا السـمع بسبب التهاب السحايا، يحتاجـون إلى المسـارعة فـي التقييم والعـلاج بزراعة القوقعـة؛ حيـث إن هذا النـوع من الالتهاب قـد يؤدِّي إلـى تكلـس القوقعة، وعـدم القدرة علـى الزراعة في المستقبل، لهذا لا يحبذ الانتظار لأكثر من ستة أشهر من التهاب السحايا إلى أن تجرى عملية الزراعة.

٨. المرضى الذين يعانون من فَقْدِ السمع في أذنٍ واحدة، أصبح بمقدورهم السماع بزراعة القوقعة بشكلٍ يفوق الخيارات الأخرى، ناهيك عن أن أغلب هذه الحالات تحسَّن

لديها الطنين المصاحب لضعف السمع، وبشكل أكبر عندما يستخدمون القوقعة الإلكترونية، ومن المرضى مَـن يتطلَّع لحل الطنين أكثر مِن حرصه على السـمع بزراعة القوقعة.

٩. قد يتعرض الجهازُ للفشل لأسباب غير معروفة، وتصل هذه النسـبة إلى ٢٪، وهي نسـبة لا يُسـتهان بها إذا تذكَّرنا أنها تسـتوجب إزالة الجهاز، ووضع جهاز جديد بعملية أخرى قد لا تخلو مِن المخاطر.

١٠. يجـب علـى كلِّ مَـن أجـرى زراعـة قوقعـة المحافظـةُ علـى بطاقـة الزراعة معـه في كل الأوقـات، كما يحتاج أن يخبـرَ الجميـع أن لديـه غرسـة تحت الجلـد، وخاصَّة الأطبـاء الجراحيـن، فهنالك أجهزة يجب ألا تسـتخدم في العمليات، كما أن الرنين المغناطيسـي يحتاج إلى تحضيـرٍ مُسـبق للحد مـن تلف أو تحـرك الجهاز، وفي المقابـلِ قـد يتوجب إزالـة المغناطيـس للتمكن من الحصول على صورة واضحة في الأشعة.

١١. لا يسـتطيع المريـضُ مِـن السـماع إذا أزال المعالـج الخارجـي عند النـوم، وعند الاسـتحمام؛ لهذا يجب أن يُراعي الجميع هذه الأوقات التي لا يسمع فيها المريضُ.

مـا زالـت التكلفةُ الباهظـةُ لإجراء هذه العمليات السـببَ الرئيسي في عدم تمتع العديد من الصم بزراعة القوقعة علـى مسـتوى العالـم، ولكـن وللّه الحمد تُعَـدُّ مملكتنا الغاليـة مـن الـدول المتقدِّمة التـي توفر أرقـى الخدمات لهـؤلاء المرضـى وبالمجان، فلم يَعُدْ خفيّـاً ما توفره زراعة

القوقعة من توفير للأموال التي تصرف لضعاف السمع في تعليمهم، معَ توفر فُرَص توظيف أفضل لهم بعد الزراعة.

التأهيل بعد الزراعة يُعول عليه بشكل كبير نجاحُ العملية، وبسبب اتساع المملكة وصعوبة التنقل فيها، فقد قامت جامعة الملك سعود بابتكار برنامج حاسوبي ذي إمكانيات عالية ومتقدمة ساعدتْ في تقليص عدد جلسات التأهيل وبنتائج عالية، وهذا البرنامج اسمه: رنان، ويوزع على المرضى بالمجان، وإن كان لي الحق بالافتخار فسيكون هذا البرنامج على قائمة مفاخري، فقد كانت فكرتي، وكنتُ في غاية السعادة في تشكيل فريق عمل لهذا الهدف وتسجيله لكرسي الأمير سلطان لأبحاث الإعاقة السمعية وزراعة السماعات.

فقد السمع والبصر ذو أهمية بالغة، فزراعة القوقعة لهم في غاية الأهمية، وإن لم تفِ بالأغراض الكاملة من الزراعة؛ كالنطق، والتواصل بشكلَ جيد، فهي تُعطيهم مزيداً من الاستقلالية والمعلومات عن السلامة، والتوازن، والتمييز، والحركة، وتعزيز تفاعلهم داخل بيئتهم والحد من العزلة؛ لهذا تعامل هذه الفئة بشيء من الخصوصية.

للتذكير هنا فإن الإنسان مهما طوَّر من التقنية فإنه لن يتمكنَ من مُضاهاة عظمة الخالق؛ لهذا من المستحيل أن تكونَ زراعة القوقعة قادرةً على إرجاع السمع إلى شكله الطبيعي، لكنها بإذن اللّه قادرةٌ على تعويض بعض الفَقْد الذي يُمَكِّن الإنسان من العيش بشكل أفضل، كما

أن كبر السن لا يجب أن يكونَ حائلاً دون الاستفادة من هذه التقنية، فكما يقال إضافة حياة إلى يوم للإنسان أولى من إضافة يوم إلى حياته، ولعلٍ ذكر بعض المشاهير الذين أجريت لهم زراعة قوقعة يُدَلِّل على هذا الهدف من الزراعة، حيث أجريتْ في عام ١٩٩٤ م زراعة قوقعة لعضو البرلمان البريطاني جاك أشلي في سن السبعين بعد ٢٥ عاماً من الصمم، وذكر أنه لا يوجد لديه صعوبة في التحدث إلى الناس واستخدام الهاتف، كما قمنا بإجراء زراعة قوقعة لمرضى تجاوزوا الثمانين، وبعضهم في الأذنين.

بعض مُضاعفات الزراعة لا رجعة فيها، ومنها شلل عصب الوجه، وتلف الخلايا في القوقعة، لكن مع تقدم التقنية وتوفر جهاز عصب الوجه، ومع أقطاب مرنة للغرسة ومهارة الجراحين، أصبحتْ هذه المضاعفات نادرةَ الحدوث بفضل اللّه، كما أن التطعيمات قللتْ بشكل كبيرٍ من خطورة التهاب السحايا.

يُعارض مجتمع الصم زراعة القوقعة، ويُعَدُّ هذا العلاجُ تهديداً كبيراً لمجتمعهم وثقافتهم، بل منهم من يذهب إلى أبعد من هذا، ويطلب من الحكومات رفع الوصاية من الوالدين الذين يودون زراعة القوقعة لأبنائهم لمشاركتهم في "الإبادة الثقافية" لمجتمعهم، ويطلبون منهم أن يتركوا لهذا الطفل حرية الاختيار عندما يرشد بين العيش مع والديه ومجتمعهم، وبين أن يلتحقَ بمجتمع الصم؛ حيث إنهم يَرَوْنَ أن ضعف السمع ليس مرضاً يستوجب العلاج، بل هو طبيعة بشرية يجب أن يؤمنَ بها الجميعُ، ويتقبلونها، كما أنها ثقافة يجب الاعتراف بها وعدم تهميشها، أو الحد

منها، كما أن هذا العلاج لن يخرجَ المريض من قدَره، فهو ما زال أصم، ويجب أن يفخرَ بصممه وألا يتهرب منه.

جدير بالذِّكر أن منهم مَن يتهم الأطباء، ويدعي أنهم يتاجرون ويساومون بهذه الإعاقة؛ للحصول على الشهرة والمردود المالي، والكثير والكثير من التهم لكل من يُحاول تقديم خدمة زراعة القوقعة؛ لهذا ينصح كل من يزرع قوقعة أو يتعامل مع الزراعات أن يكون واسعَ الصدر لمجتمع الصم، مُتفهِّماً لهم، حريصاً كل الحرص ألا يخدش كبرياءهم، ويؤكد لهم أن المجتمعَ يَحْمل لهم كل الحب والتقدير والاهتمام، والذي يتمنون فيه أن يجعلوا المجتمع مجتمعاً واحداً لا تُفرِّقه ثقافة، أو عرق أو لون، مجتمع يجتمع تحت لا إله إلا اللّه، وأن الوالدين مستأمنون على أطفالهم، ولهم كل الحق في زراعة القوقعة لأبنائهم، أو عدم الزراعة، ولا يحقُّ لأحد أن ينتزعَ هذه الوصاية منهم، كما أن من حقهم أن تتوفرَ لهم كل ما يرغبون به من مدارس للغة الإشارة إن أحبوا هذا الاتجاه، وفي بالمقابل لهم كل الحق في مستشفيات تقدِّم لهم زراعة القوقعة إن كان هذا اختيارهم.

كما أنه لا يحقُّ لأي إنسان أن يُشَكِّك في معلمي الصم لغة الإشارة ولوسائل الإعلام التي تنشر الترجمة ولوسائل الاتصال التي تسهل عليهم التواصل، كما لا يحق التشكيك في كلِّ مَن يقدم خدمة الزراعة من جراحين ومختصي سمعيات وتأهيل، كما أن المبالغ التي تصرف على زراعة القوقعة يجب ألا تكونَ على حساب المبالغ التي تصرف في التعليم لضعاف السمع، ولو كانت عشرة أضعاف زراعة القوقعة وهذا ما أثْبَتَتْهُ الأبحاث والدراسات.

سماعة الهجين

يُعاني بعض المرضى مِن ضعف حسي عصبي شديد في الترددات العالية، بينما يكون ضعف السمع في الترددات المنخفضة بسيطاً، فهؤلاء المرضى لا يَوَدُّون فقدان سمعهم بزراعة القوقعة، وفي المقابل تفيد السماعات التقليدية الترددات المنخفضة فقط.

تقوم فكرة سماعة الهجين على الجمع بين زراعة القوقعة للترددات العالية، والاستفادة من السماعات في الترددات المنخفضة، وعززتْ هذه الفكرة أهمية المحافظة على بقايا السمع في زراعة القوقعة بطرُق عدة؛ لعل من أهمها: استخدام ألياف أقصر وأكثر مرونة، وإدخالها للقوقعة ببُطْءٍ مع بعض الكورتيزون الموضعي.

يقوم مُعالج الكلام خلف الأذن بنفس الدور في زراعة القوقعة للترددات العالية، بالإضافة إلى قيامه بدور السماعة التقليدية في تقوية وفلترة الصوت للترددات المنخفضة، لهذا يطلق على هذه التقنية الحديثة بالاستثارة الكهروصوتية.

تَجْدُر الإشارة هنا أن هذه الزراعات تحتاج إلى جرَّاحٍ مُتَمَرِّس في القيام بزراعة القوقعة، كما تحتاج لبرمجة دقيقة لكي يتمكن المخ من الجمع بين الاستثارتين، وبرمجتها بشكل توافقي، كما أن المريض يحتاجُ لتأهيل لفظيٍّ بعد العملية.

كان للمركز لدينا السبق في إجراء هذه العمليات لأول

مرة في الشرق الأوسط، والتي تكللتْ بالنجاح ولله الحمد، وليست هذه الزراعات بالعلاج الأفضل لبعض المرضى؛ لهذا ينصح كل مريض بالاستماع جيداً لنصائح الفريق المعالج، ولا يتردد في السؤال عن كل صغيرة وكبيرة، كما يجب أن يعرفَ المريض أن بقايا السمع قد تذهب عند إجراء هذه العملية، ولكن في هذه الحالة قد يكون بإمكان زراعة القوقعة تغطية الترددات المنخفضة أيضاً.

الشركات

توجد هنالك أربع شركات عالمية مُصَنِّعة للقوقعة أثبتت خلال فترة طويلة مقدرتها على التنافس والبقاء، بينما كُتِبَ لبعض الشركات الفشل والانتهاء، هذه الشركات حسب الترتيب الأبجدي ليكون هنالك تجرُّد كامل عن تمييز إحداها عن الأخرى هي: أدفانس بيونيك، وكوكليا، وميديل، ونيورو، وهنا بعض التفصيل عن كل شركة:

ا. أدفانس بيونك سونوفا Bionic Advance:

هي شركة أمريكية تأسست عام ١٩٩٣م، ويوجد مصنعها في مدينة فلنسيا في ولاية كاليفورنيا الأمريكية، حصلت على ترخيص هيئة الدواء والغذاء الأمريكية في ١٩٩٦، وكانت تدعى في ذلك الوقت بكلاريون، ثُم تَم اتحاد هذه الشركة مع عملاق السماعات فوناك ومجموعة سونوفا، والتي طورتْ بعدها معالج الكلام بشكل جوهري، ويتميز جهازها بإمكانية السباحة بوضعِه في حقيبة صغيرة.

٢. كوكليا Cochlear:

تأسستْ هذه الشركة عام ١٩٨٣ في مدينة سيدني الأسترالية، واستحوذتْ على السماعة العظمية Baha، ومن ثم لسماعة الأذن الوسطى (أوتولوجك)، تقوم بتصنيع القوقعة والسماعات العظمية وسماعات الأذن الوسطى، وسماعات جذع الدماغ.

٣. ميديل Medel:

تأسست في مدينة إنسبروك النمساوية في عام ١٩٩٠، بزوجين من علماء الهندسة الكهربائية الذين صنعوا أول قوقعة متعددة الأقطاب، وزرعت بنجاح، وذلك في عام ١٩٧٧، وتقوم هذه الشركةُ العائلية بتصنيع القوقعة والسماعات العظمية وسماعات جسر العظم وسماعات جذع الدماغ.

٤. نيورو أوتيكون Oticon:

هي شركة فرنسية بدأتْ في عام ١٩٨٨ باسم إم إكس إم MXM، وفي عام ٢٠٠٦ انفصل عنها قسم السمعيات، وأطلق على القوقعة اسم نيوريلك، وفي عام ٢٠١٣ اشترتْها ويليام ديمانت القابضة الدنماركية، وأسمتها: أوتيكون الطبية، وتقوم بتصنيع القوقعة وسماعة جذع الدماغ.

تتوافر أيضاً شركات مصنعة للقوقعة في الصين والهند وكوريا، لكنها لم تحظَ بالشهرة العالمية لهذه الشركات الأربع الكبار.

أ.د. عبدالرحمن بن عبدالله حجر

زميل الكلية الملكية الكندية

http://faculty.ksa.edu.sa/drhagr

رئيس الجمعية السعودية للأنف والأذن والحنجرة

استشاري ضعف السمع وزراعة القوقعة والباهة

أستاذ جامعة الملك سعود

المشرف على كرسي الأمير سلطان للإعاقة السمعية وزراعة السماعات

مدير مركز الملك عبد الله التخصصي للأذن

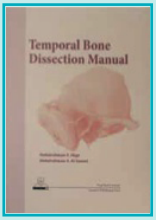

مركز الملك عبدالله التخصصي للأذن
K A E S C

الجمعية السعودية للأنف والأذن والحنجرة
SAUDI OTOLARYNGOLOGY SOCIETY